obeikan.com

يوم يبدل الواقع

يوم يبدل الواقع
رواية
كريم عبد الحميد
الطبعة الأولى

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل :٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع :٢٠١٧/٤٢٥٨٧
رقم الترقيم الدولي :978-977-798-069-2

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

obeikan.com

يوم يبدل

الواقع

كريم عبد الحميد

obeikan.com

obeikan.com

المقدمة

فى الكون أكرر النظر إلى السماء وفى كل مرة أجد شئ لم أراه من ذى قبل، حتى ولو لم يفارق نظرى من قبل! وجدت نجم بعيد بعد السنين والأزمان، سألته هل ترانى كما أراك؟!قال أنت أقل من أن ترى!سألت الشمس القريبة هل ترينى كما أراكى فالنجم لا يرانى؟!قالت أنت أقل من أن أراك أعذرنى!نظرت إلى القمر الأقرب، سألته هل ترانى فالشمس لا ترانى؟!قال حقا لا أراك فأنت أقل من أن ترى! نعم أنا أقل من أن يروننى كما أراهم!أعاود المحاولة من جديد بسؤال أخر، ، منذ متى أصبحتوا هكذا متعلقون بين السموات؟!فتكون الإجابة قبل أن يجدوا أمثالك من البشر أسباب لوجودنا على هذا الحال! ، نحن من عصر يدعى «خارج منطقة الأسباب»و هو عصر محيط بعصرك !أعاود تكرار الأسئلة وفى كل مرة الإجابات غامضة!.

الكون يتحدث عن نفسه بنفسه، لا يحتاج لأدلة كالحق بطبيعته ظاهر!إذا أردت أن تعرف شئ فقط أنظر إلى الوجود وسوف تعلم الإجابة، هل أنت حر حقا ؟؟!سؤال أعرضه على الكون!إجابته لك هى الحقيقة!إن أردت أن تطير بجسدك كالطير بدون سلطان لفشلت!كلما صعدت فى السماء بروحك دون سلطان أختنقت!لو قفذت من حد أعلى من الحد المسموح أن تقفذ منه بدون سلطان لتحطمت!السلام فى الدنيا مؤقت، و السعادة فى الدنيا مؤقتة،، الأنتصار مؤقت، كل شئ فى الدنيا مؤقت، الحرية هى» الا تطعن بعد إلقاء السلام، الحرية ألا تمل، الحرية ألا تقف عن حد وفى نفس الوقت لا يتضرر لوجودك أحد»، كل شئ فى تلك الدنيا مؤقت، المجرة سجينة االكون!، الكوكب سجين المجرة! جسدك سجين الكوكب!و أوهامك وجهلك سجناء جسدك!و روحك سجينة أوهامك وجهلك، الحرية تنتهى بالخلد فى كل شئ ولكن الدنيا تنتهى بالفناء بكل شئ!.

«شارد» شاب يبلغ من العمر تسع وعشرون عاما، »شارد« بطل تلك الروايا يعش خارج المعهود، خارج الأسباب، خارج المنطق، بطبيعته لا يستطيع أن تأثره المفاهيم، و لا يعترف بكل ما يراه، يرى للشئ أكثر من وجه ومعنى!يؤمن فقط بأن من خلق ذلك الوجود وما بعده يستحق أن يعبد، سنعلم أكثر عن» شارد» من خلال الرواية.

«شارد» أستيقظ من النوم صباحا، دخل الحمام ثم وقف تحت الماء وهو ناظرا من خلال النافذة، ناظرا إلى أشعة الشمس التى تخالط الماء الذى ينسكب من فوق رموشه، لتصنع قطرات الماء وأشعة الشمس عالم أخر ل»شارد»!

obeikan.com

الفصل الأول
«منذ البداية فى عالم مسحور»

شارد ..أسمى «شارد النعمانى».. لا أعرف من أين أبدأ !، ولا أعرف من أين كانت البداية ؟؟ ..و متى ؟؟.. وكيف؟!.. ولكن ستكون بداية الكلام من أول شئ يرد فى خاطرى!..حين بدأ ذلك الشعور كان أشبه بحلم!قبل التمييز!أتذكرمنذ نعومة أظافرى أو كما تعود الإنسان منا أن يقول «من ساعة ما وعيت على الدنيا»، تلك الجملة التى عرفت فيما بعد من خالى الرجل الحكيم «حكيم» إنها جملة تخفى ورائها عالم من الغموض ومن التساؤلات، ولكن سأروى لكم ذلك الحوار فيما بعد، الحوار الذى دار ما بينى وبين «خالى حكيم»، أما الأن سأذكر أشياء حدثت لى قديما منذ زمن بعيد، ولكنى أشعر أنها حدثت من أمس فقط، أتذكر أنه فى طفولتى وفى الوقت الذى كان متعة أى طفل هى اللعب والمرح فكانت متعتى انذاك أن أنفرد بعيدا عن البشر وحيدا شريدا مع نفسى مع خلدى، أحاكى الكون ويحاكينى وأنظر إلى تلك السماء لا لأتأمل فيها لونها الأسود ليلا الملئ بالنجوم ذات الأضواء الخافتة والقمر الذى تارة يبتسم وتارة أخرى متجهم،

obeikan.com

وفى الصباح لونها الأزرق الذى تختفى فيه النجوم الصغيرة لتسطع فيه نور الشمس، النجم الكبير!ولكن لأتأمل فى بعدها وأرتفاعها بغير عمد، و أتساءل هل تلك السماء بعيدة حقا ؟!فلا أستطيع لمسها أم قريبة فألمسها؟؟... يا حبذا .. يا ليتنى أعلم ما وراءك! وفى الوقت الذى يخاف فيه الأطفال من بعد أباءهم وأمهاتهم عنهم ومن عقاب الكبار أو الأباء لو أخطأوا، هو نفسه الوقت الذى أخاف فيه من الغيب والمجهول الخوف من أن لا أفعل شئ فى الوقت الذى ينتهى فيه كل شئ، الخوف من الله الذى وجد كشعور فطرى طبيعى لم يكن أحد من حولى بالقدر الكافى من التدين حتى يقول لى أحدهم حب الله وجنته أو خاف منه ومن ناره وما كان لأحد ليدنس ذلك الشعور، ولكن هو الشئ الذى لطالما ذكرته فى كل وقت وحين فكنت أبكى حب وخوف، كنت أخاف فى صغرى من أن لا يغفر لى ذنوبى التى كنت أشعر أنذاك أنها جبال ولم يكن يخطر فى بالى يوما أنه فى كبرى سوف أرى تلك الذنوب كجبال لكن من علوها لا أرى قممها، وفى يوم من الأيام وكنت فى المنزل أجلس وحيدا برغم من أن هناك أقارب لنا عندنا فى هذا اليوم، أتى ضيف منهم نحوى، ذلك الضيف رجل كبير فى السن من أحد أقاربنا المقربين أسمه العم «قاسم»، رجل فى منتصف الستينات من عمره، له شارب طويل وفيه شيب، سألنى وهو يرانى أجلس وحيدا ولم أتى خجلا لأسلم عليه ولا على الناس وعن ما هو سبب حزنى وجلوسى وحيدا؟! .

-لماذا يا «شارد» أراك حزين؟لماذا تجلس وحيدا ولا تجلس معنا ؟ هل نسيت حل الواجب..هههه؟!

ثم نظرت له قائلا فى سرى، لماذا يظن الناس أن الأطفال سفهاء؟!ثم قلت له

-لا، بل فعلته!.

ثم سألنى مستخفا بأسباب حزنى مرة أخرى!

-إذا يبدو أنك فعلت كارثة وتخاف أن يعرف أحد أبويك أو كلاهما..... هههه؟!

obeikan.com

ثم ردت عليه مسرعا

-لا، لم أفعل كارثة!.

فنظر إلى « العم قاسم» فى صمت وكانت علامات السخرية على وجهه لصغر عمرى كما لو أنه يسأل نفسه، »هل رأيت شئ بعد فى الدنيا يحزنك؟، هل عندك التزامات مثلى فى العمل والبيت ونحو الأولاد؟، فأنت مازلت صغير لا تعلم شئ عن دوامة الحياة وصعوبة المعيشة؟«..كل هذا قرأته فى عيناه رغم صغر عمرى لكن فهمت تلك النظرات، ولكن سألنى وهو يضحك .

-إذا ما هو الشئ الذى يحزنك يا «شارد»؟

ثم قلت له فى بؤس وشقاء وأنا حقا كنت أشعر بالخوف حينها!

-أخاف الأخرة ..أخاف..أخاف أن تقوم على الساعة وأقابل الله وما فعلت شئ إلا إقتراف الذنوب

فرأيت «العم قاسم» سرعان ما تبدلت علامات السخرية التى كانت على وجهه بالأندهاش والحيرة والتعجب الممزوج بحزن، وكان يلبس «العم قاسم» على وجهه نظارة فخلعها ثم حنى رأسه نظرا للأرض فى حزن بعد أن وضع يداه على وجهه لتخفى ردة فعل الصدمة من الإجابة التى لم يكن يتوقعها وإستهانته بصغر سنى ثم نظر إلى والإبتسامة والحيرة تملأ وجهه، ثم قال لى وهو يتلعثم فى الكلام.

-يا شارد ..شارد..من قال لك هذا الكلام؟؟..ماذا اقترفت من ذنوب حتى تخاف فأنت لم تتجاوز سن الثامنة!

ثم نزلت دمعة من عينى وأنا أقول له

- لا أحد ولكننى أخاف من»الله« ...من الغيب....أخاف لو أنه لم يغفر لى ذنوبى!.

العم قاسم متلهفا لمحاولة معرفة قدر وحجم الذنوب التى تجعل طفل مثلى يشعر بذلك الحزن حتى تغيرت نوعية الأسئلة التى يطرحها على، حتى أحمر وجهى وتصبب عرقا وكنت أجاوبه بسرعة خائفا ومستنكرا من نوعية

الأسئلة .

- و ماهى الذنوب يا «شارد»؟، هل كذبت على أحد؟؟...هل سرقت شيئا؟؟......هل شربت سجائر؟؟.

أنا فى خوف

- لا.. لا..أعوذ بالله..أعوذ بالله .لا لم أفعل تلك الأشياء .

قال «العم قاسم» محاولا تهدئتى

- لماذا خفت هكذا؟...اهدأ ...إذا ..ما هى؟؟..يا بنى!

شعرت بالعجز فى وصفى لما يدور داخلى فأجبته

-إنها كثيرة ولا أعرفها ومهما حاولت أن أوصفها لا أعرف...ولكن كلما شعرت بها، أشعر إننى أخاف العقاب

ثم سألنى»العم قاسم»بجدية وترقب

-تخاف من عقاب الله فقط ولا تخاف من أحد سواه؟!.

و كان ما جاوبت به عليه هو الصدق

-نعم ...هو وحده أخافه.

ثم أنتهى الحوار بينى وبين «العم قاسم» وغادر المنزل مع أسرته وسلم على وهو مبتسم ويشير إلى بالسبابة ووعدنى بإستكمال الحديث مرة أخرى قائلا.

- أنا سأغادر الأن ولكن سأعرف منك عما يخيفك ؟!..و ما هى تلك الذنوب؟!

-حسنا.

-سلام يا شارد يا بنى

-سلام يا عماه.

و أنتهى الحديث إلى هذا الحد ولم يسألنى مرة أخرى، لأننى لم أراه بعدها لإنشغاله فى دوامة الحياة.

ولطالما كنت أبكى كثير لكن لوحدى ومن النادر أن أبكى أمام أحد، و من النادر أن أبكى لأمور دنيوية، فأنا بطبيعتى لا أكترث للدنيا وللمظاهر الخداعة، والغريب منذ طفولتى طموحاتى كانت خالصة للأخرة الجنة والفوز بها

obeikan.com

والنعيم والخلد الأبدى ولم يكن من طموحاتى أن يكون عندى سيارة فارهة ولا قصر ولا حتى بيت جميل، إنما كنت أشعر دائما بالطمع نحو كل شئ «غير أرضى» بعد تلك الحياة المقضية، كنت أبكى فى صغرى إشتياقا لذلك العالم الجميل الذى لا ينتهى أجله وأنام فى غرفتى على سريرى ناظرا إلى السماء من نافذة غرفتى وأبكى، و أقول لنفسى متى تنتهى تلك الحياة على خير؟! ويطول الحديث لأزمان طويلة فى تقدير قصير أو فى أزمان قصيرة فى تقدير طويل، فأنا لا أعرف مقادير الزمان ولا المكان حينما أختلى بنفسى ولكن ما أعرفة أننى أعيش خارج الزمان والمكان حتى ولو بداخلهما، حديث ما بينى أنا ونفسى التى ما طموحى فى تلك الدنيا إلا النجاة بها، و حين أنام باكيا من ضيق الحياة وسجن الجسد أحلم بأننى» خفيف جدا وأقفز وأطير، وأدور فى عالم جميل مسحور»، و أفيق من الحلم على عكس ما نمت سعيدا، ولكن لطالما ودت أن أعود مرة أخرى إلى تلك الأحلام التى لا أعرف ما يسعدنى فيها فأنا أشعر بالسعادة بحواس خارج الحواس العادية خارج الجوارح ولكن أشعر حين أفيق بأن الله يريدنى أن أعرف أن الدنيا فانية ويزيد من تمسكى بالبعد عن تلك الدنيا التى كل شئ فيها بحساب وفوق ذلك مؤقت بل فان !أشعر أنه يريدنى أن أتسائل عن تلك الأشياء التى أراها أن لم يكن فى وقتها ففيما بعد حتى وإن طال الأمد!، وفى طفولتى أيضا وحينما أسمع صوت الموسيقى أشعر بسعادة غريبة، وحينما أسمع «النقشبندى» خصتا وهو يقول «أيها الناس إن هذا بيان أنزلته الشريعة السمحاء» إلى الأخر يقشعر بدنى فكنت أشعر أنه صوت من السماء، و لطالما وأنا صغير كنت أرسم أشياء غير البشر، خارج تلك الدنيا أشياء لم أراها وأشتهيها ولكنى أعرفها بل أقاد أحيانا إلى رسمها، و لكن ما كان يزلزلنى ويحول بكائى إلى عذاب من الداخل هو كلام الله لطالما شعرت بالخوف والأشتياق معا من المقابلة، برغم من أن كلام الله فى ذلك السن كان من الصعب على أن أستوعبه أحيانا وأفهمه لكن كان يبكينى، فأنا أشعر من داخلى أننى أفهمه كنت أشعر بالقدسية،

وأن من يتكلم هو الله حتى ولو لم أعرف معنى القدسية وأشعر بالغرابة فى نفسى أحيانا من أننى حين لم أستطع فهمه فلماذا أبكى هل لأنه كلام الله أم لأنه غذاء للروح وخطر الأن فى بالى أنه فى يوما ما فى صغرى وكنت فى المدرسة وجاء معاد حصة التربية الدينية، و كان أستاذ المدة أسمه «علام» وكان شاب نوبى بسيط فى نفسه وملابسه لا يتجاوز الثلاثين من عمره، وكان يقرأ القرأن بصوته العذب، و كنت أجلس فى أخر الصف وحدى لأسمع كلام الله فى صمت، وفى مرة من ذات المرات أثناء قراءة الأستاذ «علام» للقرأن الكريم.

-بسم الله الرحمن الرحيم ((يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم)).

ثم توقف على غير عادته فجأة عن القراءة عند قوله تعالى.

- (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) صدق الله العظيم....ما أسم ذلك الطالب الذى يجلس فى أخر الصف نائم ويضع وجهه على الطاولة ويخفى وجهه بذراعيه .؟ هل ينام فى كل الحصص المدرسية إنها ليست المرة الأولى له؟!.

ثم رد أحد الطلاب على الأستاذ «علام» قائلا

- أنه شارد...و لكن يا أستاذ هو ينام فقط فى حصة التربية الدينية ..فقط !

ثم قال لى وهو جالسا فى مكانه على الكرسى فى عتاب وبعدها سألنى

- شارد...إنى لاحظت أنك تنام فى حصة التربية الدينية خاصتا حينما أقرأ كلام الله ولا تعير كلام الله إنتباه حرام يا بنى!...شارد...شارد...لماذا لا ترد على أما زلت نائم؟.

كنت أسمعه جيدا ولكن لا أريد أن أرفع وجهى، ثم قام الأستاذ «علام» فجأة بغضب من على كرسيه وأتجه نحوى بسرعة ثم أمسك بشعرى ليرفع بوجهى نحوه حينما ظن أننى نائما ومتجاهل كلامه، ثم سكت وتعجب حينما رأى وجهى يملئه البكاء! وسألنى بعدها برفق

-أنت تبكى بشدة!.. لماذا يا بنى؟! ...أسف ظننتك وظن أصحابك أنك نائما ...ولكن لماذا تبكى؟!

لم أرد على الأستاذ علام ونظرت إلى الأسفل وأنا أبكى وأشعر بالخجل، فحاول رفع وجهى نحوه مرة ثانية لكن بلطف ليعلم سبب بكائى، ثم نظرت مرة ثانية إلى الأسفل وأزداد بكائى. ثم نزل هو على ركبتيه جالسا على الأرض وفى هدوء قال.

-شارد ...أنت كنت تبكى حينما نظن أنك نائم فهذه المرة والمرات الأخرى؟!.

أجابته بصوت مكتوم

-نعم.

-لقد علمت من أصدقائك أن هذا يحدث فقط فى حصتى...لماذا؟!

ثم فى صوت مكتوم مرة أخرى ولكن تلك المرة فى خجل، ليسمع الأستاذ»علام» فقط تلك المرة وحده.

-كلما تذكرت الله أو الأخرة وكلما سمعت كلام الله بكيت لا أعرف لماذا!.. حتى ولو لم أفهم الكلام وإن كان صعب على، يحدث لى كما رأيت!

نظر الأستاذ «علام» لوجهى وهو فى غاية السرور والأندهاش وبعد أن سكت طويلا قال لى.

- كنت شارد.. يا شارد فى ملكوت الله....كلام الله دخل قلبك ...ولهذا تبكى... ولن يخذلك الله أبدا على قدر هذا الحب له وإن طال الإنتظار...و تذكر ذلك الكلام وتذكرنى!.

ثم قام الأستاذ «علام» من على ركبتيه منتصب القامة بفخر وهو يصيح فى الفصل ناظرا نحو أصدقائى.

-يا أولاد فى الوقت الذى كنا نظن أنا «شارد» نائم كان كلام الله يدخل فى قلبه الصغير.

ثم نظروا لى أصدقائى وهم فى منتهى البراءة ونظر إلى مرة أخرى الأستاذ «علام» بنفس الفخر والسعادة وعيناه تكاد تزرف بالدمع.

- أذكر الله فى نفسك يذكرك فى نفسه...وأذكرنى يا بنى وأذكر كلامى...بارك الله فيك.

ونظرت إلى الأستاذ «علام» وأنا دموعى تملئها الفرح.

-شكرا ...يا أستاذ علام..شكرا

ثم وضع الأستاذ «علام» يده فى جيبه، ثم أخرج منها كعكة قائلا

-تفضل يا «شارد» يا بنى تلك الكعكة لك!

ثم أخذت الكعكة وقلت له.

-شكرا

و كانت حصته أخر حصة فى ذلك اليوم، ثم سكت الكلام وإنتهت الحصة، ودرب جرس نهاية اليوم الدراسى، وأخذت طريقى إلى البيت، و كان وبرغم من كلام الأستاذ «علام» الذى جعلنى أشعر بالقوة، ولكن كلامى البسيط له، لا يستطيع أن يوصف مدى ذلك الأحساس القوى وتعلقى بالله، و ظاهر ردودى كطفل صغير على الأستاذ «علام « لا تتناسب مع باطن العمق الايمانى الذى كنت أشعر به أنذاك، بمناسبة ذكرى أيام الدراسة فكان فى وقت الصلاة الطلاب يتسارعون على الإمامة، وإذا سأل أحد الثانى من الإمام قال كل واحد منهما، أنه هو الإمام لكننى لا أتسارع مع الأولاد لأقول أنا الإمام، فالإيمان بالنسبة لى هو النجاة من ظلمة تلك الحياة العبثية، كنت فى صغرى لست الأكثر تفوقا بل كنت عادى على المستوى الدراسى وأحيانا فاشل! ولكن دائما كنت أشعر بالاختلاف عنهم، و لا أعرف لماذا لا أفعل مثلما يفعل الأطفال، ولا أفكر فيما كانوا يفكروا فيه، ولا أشعر بما يشعروا به، فقط كنت أشعر بأننى مختلف فى كل شئ، و كنت أشعر بأنهم أطفال عن حق! بالنسبة لى وحتى كان يوم الجمعة بالنسبة لى له مذاق خاص، كنت أحب سماع خطبة الجمعة من «شيخ ضرير» كبير فى السن كان وجهه ملئ بالنور وكان ذلك الشيخ الضرير ربع وضخم صاحب هيبة وكان إمام فى مسجد بعيد قليلا عن منزلنا، برغم من وجود مسجد بجوار المنزل، لكن أولا كنت أشعر بأن هذا

obeikan.com

«الشيخ الضرير» ينظر إلى ويرانى، ثانيا لأن خطبة الجمعة من هذا «الشيخ الضرير» كان لها مذاق روحانى خاص، فكان كلامه عن الغيبيات ونهاية التاريخ وأهوال وعجائب العلامات التى ينتهى بها الزمان، وكنت أشعر بمتعة فى سماع ذلك الكلام الساحر الذى كنت أتخيله وأحلق معه، وكنت أتفقد أحيانا تعبيرات ووجوه من يستمعوا إلى الخطبة، فأجد نفسى أكثر من يستمعوا أنبهارا، و أذكر فى مرة من المرات بعد صعود «الشيخ الضرير» إلى المنبر وبعد أن بدء بمقدمة خطبة الجمعة، دخل «الشيخ الضرير» فى الحديث عن علامات الساعة الكبرى ووصف كل شئ فيها وصفا دقيقا، بعد أن أخذ «الشيخ الضرير» نفس عميق ثم توجه برأسه إلى الأعلى كما لو أنه يرى شئ فى الأفق لا نراه نحن!.. ثم قال.

- أما بعد يا سادة يا كرام، نتكلم اليوم عن علامة من علامات يوم القيامة، الا وهى ظهور «المسيخ الدجال» ..أعوذ بالله من فتنة المسيخ الدجال......أمين.. أمين...جاء وصفه يا أحبتى فى الله، كما وصفه لنا خير الأنام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقال....

المصلون فى نفس واحد

-عليه الصلاة والسلام ..

- فقال النبى إن هذا المسخ له عين واحدة وعيناه الثانية ممسوحة، لذلك أخوتى فى الله يقال عليه أحيانا «المسيح الدجال» كناية عن عينه الممسوحة، أيضا مكتوب فوق جبين هذا المسخ أنه كافر، ولا يرى كلمة «كافر» على جبينه إلا المؤمنين....الخ

ثم بدء سرد الأحاديث الشريفة وأنا أسمع إلى كلامه ووصفه للدجال، حتى ظللت أتخيل ملامحه على قدر مستواى الفكرى ولم أكن فى ذلك الوقت أشك فى كيف هذا؟!، وما الذى يقوله؟!...و لكن متى؟؟ .. وكنت منبهر بذلك الكلام وفقط أتخيله...ثم بدء فى وصف علامة أخرى من علامات يوم القيامة ألا وهى «يأجوج ومأجوج» فقال.

obeikan.com

-أخوتى فى الإسلام...أما إننى الأن سأذكر لكم علامة أخرى من علامات يوم القيامة الا وهى قوم «يأجوج ومأجوج» .. ونستعيذ بالله من أولئك القوم.... قوم يأجوج ومأجوج ذكر سوء أعمالهم وأيضا أنهم موجودون إلى الأن ...فى مكان وبطريقة ما لا يعلمها إلا الله ..موجودون ولكن بعد أن بنى عليهم رجل صالح يدعى» ذى القرنين» سور بينهم وبين القوم الذين أستغاثوا به!... كما ورد فى الأية الكريمة فى سورة الكهف...الخ.

ثم أخذ الشيخ الضرير يقرأ عليهم ما تيسر من سورة الكهف، و يسرد فى وصف ذلك القوم وأنا أتخيل أشكالهم العجيبة، ثم دخل الشيخ فى الحديث عن علامة من علامات يوم القيامة وهى أخر علامة فى حديثه ألا وهى «طلوع الشمس من مغربها»!.

- أما بعد، أخوتى فى الله إن أخر علامة أذكرها لكم فى هذه الخطبة، ألا وهى «طلوع الشمس من مغربها»، ولا أخفى عليكم أننى لم أرى الشمس يوما لأننى ضرير ولكن تلك العلامة هى أكثر العلامات التى تبعث فى داخلى الذعر من هول ذلك المشهد الذى ذكره لنا المصطفى، ومن أن عند ظهورها يقفل باب التوبة.....الخ

ثم أنهى الشيخ خطبته بعد أن أمن قائلا.

-قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله وصلوا صلاة مودع عسى الله أن يقينا شر تلك الفتن والأهوال.

ثم أنتهت الصلاة وفض الجمع ولم يبقى سوى الشيخ الضرير جالسا يسبح عند قبلة المسجد، فذهبت له مسرعا قبل أن أمشى لأسأله بعض الأسئلة، ذهبت اليه مسرعا ولكن على أستحياء ثم جلست بجانبه على الأرض عند قبلة المسجد

-يا شيخ..أنا أسمى «شارد»...أريد أن اسألك!.

تبسم وجه» الشيخ الضرير ثم قال لى فى لين

-أهلا يا «شارد» يا بنى....لكن قبل أى شئ...قبل أن تبدأ الكلام مع أحد يا

بنى، يجب أن ترمى السلام...و تقول السلام عليكم ورحمة الله .
ثم شعرت بالخجل من نفسى فقلت له
-أسف ..السلام عليكم ورحمة الله.
ثم رد على شيخ مسرعا مبتسما.
- السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته...سل يا بنى!
ثم بدءت أطرح السؤال بلهفة لمعرفة الإجابة حتى كان جبينى يتصبب عرقا!.
- متى يظهر الدجال؟...و...و...متى نرى يأجوج ومأجوج؟!...و...و..و...متى تطلع الشمس من مغربها؟
ثم زادت أبتسامة الشيخ وسألنى!
-كم عمرك؟!
تعجبت من أنه جاوب على سؤالى بسؤال أخر!
-٨ سنوات...و لكن لماذا؟!
نظر «الشيخ الضرير» إلى أعلى مرة ثانية، إلى الأفق كالتى نظرها قبل الخطبة وأبتسم ثم وجه وجهه نحو صوتى.
- بالنسبة يا بنى عن سؤالى لعمرك فهذا من باب المعرفة!....أما عن أسئلتك يا بنى لن أقول لك أن تلك الأشياء غيبية!....لا تفكر فيها...إنما سأقول لك شئ ولا بد أن تذكره.!....أنا عبد وأنت عبد...من الصعب أن أوصل لك كلامى ...ليس لصغر سنك...لكن!....هناك أشياء تعجز عن وصفها الكلمات!...ثق بنفسك يا بنى ...من ينتظر نهاية الخطبة وينتظر مغادرة الناس ليسئل، مثل هذا الإنسان يصل إلى الحقيقة يوما ما..... .
ثم سكت «الشيخ الضرير» بعد جملة «يصل إلى الحقيقة يوما ما» طويلا ثم قال بقوة.
-يوما ما!....وحدك!.....وحدك!...لا بمساعدة عبد، لكن بنور الله!.
ثم أصبت بالذهول وشعرت بأننى فى تلك اللحظة كما لو أننى فى حلم، و لم أقل شئ «للشيخ الضرير» أو أسأله فى تلك المواضيع مرة أخرى، ولم الح

عليه أن يقول لى الإجابة الأن! ولكن قلت له فى صمت وحيرة.
-شكرا.
زادت أبتسامة «الشيخ الضرير»حكمة وغموض!
- من عفو يا بنى .
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
و إنتهى الحديث ثم قمت وأنا ما زلت فى حالة الذهول نفسها والشعور كما لو أننى فى حلم، ملحوظة!..تلك هى أخر مرة صليت فيها فى هذا المسجد أو بمعنى أصح انقطعت فترة طويلة عنه ولا أعرف لماذا ؟!. كما لو أننى نسيته ولكن واظبت على صلاة الجمعة بعد ذلك فى مسجد أخر، حتى كنت لا أعرف اسم ذلك «الشيخ الضرير»!و أخذت طريقى إلى البيت ومن البيت إلى سريرى، أفكر فى كل كلمة قالها ذلك «الشيخ الضرير» بعمق، حتى أغمضت عينى، واختلطت حالة الذهول التى أصبتنى فى الواقع بالحلم، وكانت تلك البداية فى سلسلة من الأحلام التى كانت تراودنى من ذى قبل ولكن بدءت أن تأخذ مكانها فى دورة حياتى.
حينما ذهبت فى النوم بعد كلام «الشيخ الضرير» حلمت، بأننى أجلس فى المسجد معه ولكن المسجد كان أقل حجما من الحقيقة ذلك الشعور الذى أنتبنى، ثم أرى «الشيخ الضرير» يخلع النظارة السوداء التى كان يلبسها وإذا به يبصر، لم أشعر فى الحلم بذهول من أنه يبصر!ولكننى أخذت طريقى إلى الأسئلة التى ترحطها عليه فى الواقع، وكلما أسأله سؤال أثناء الحلم لا أراه إنما يحدث أن أرى الإجابة متجسدة أمامى ثم أرى نفسى فى مكان غريب خارج المسجد الذى هو أصلا بدى لى فى الحلم غريبا وبعد كل إجابة غريبة فى مشهد غريب فى عالم عجيب أرجع إلى المسجد ولكن شكله يختلف عن ذى قبل.
- يا شيخ متى يظهر الدجال وهل شكله مثلما قلت؟!

فأرى نفسى من خطوتين لى تتبدل الأحوال فجأة، أرى نفسى فى قصر مظلم قديم كالذى نراه فى أفلام الرعب وأرى أمامى مسخ عجوز رمادى اللون شعره أبيض وطويل وعينا له ممسوحة والثانية محدقة وقبيحة وأرى على جبينه ندبة كتب عليها كافر، جالسا على جماجم لشياطين، ثم يتجه ذلك الدجال قرب وجهى فأفزع منه وأهرب وهو خلفى يجرى، مهما حاولت الهروب أسمع صوت دبة قدمه على الأرض فى كل مكان كتوابع الزلازل، ثم أرى أمامى، مكانا سحيق لا نهاية له فأرمى بنفسى فيه فأجد نفسى فى المسجد، وقد كما قلت أختلف شكل المسجد، حتى شكل الشيخ الذى كان ضرير بدى وكأنه أصغر سنا فأستعجبت ولكنى لا أسئله عن صغر سنه فأدخل فى السؤال الثانى .

-متى يظهر يأجوج ومأجوج ؟؟..

فأرى نفسى للمرة ثانية بعد خطوات لى تتبدل الأحوال فى مكان غريب فيه بيوت غريبة أشبه بالبيوت التى هى على الطراز الصينى، حتى أرى أمامى مخلوقات أشبه بالصينيين، فينتابنى الشعور المؤكد بأن هؤلاء هم «يأجوج ومأجوج» يدمرون كل شئ حاولت الهرب منهم مرة ثانية حتى وجدتهم أمامى لا أعرف كيف؟!....و أنهم يأكلون فى ذراعى..وشعرت بوجع فى ذراعى ولكنه ليس كالوجع ، و جع أشبه بمنشار يمشى بالتماس وخفة على ذراعى أثناء الحلم، و لكن شعرت بالوجع كمفهوم، ثم أغمضت عينى ولكن مازلت أراهم بالرغم من أغماضى لعينى وصرخت !فوجدت نفسى أمام الشيخ مرة أخرى، فى نفس المسجد ولكن كان المسجد فى مكان عجيب وكما لو أن المسجد بلا سقف وبلا جدران !......ثم أطرح عليه السؤال الأخير.

- كيف تطلع الشمس من المغرب؟؟!..

ثم كالعادة يختفى الشيخ ثم أنظر إلى الأعلى فى الأفق فأرى الشمس بازغة عمودية على أرض المكان العجيب الذى كنت فيه ولكن السماء بلون أزرق داكن ما بين المغرب والعشاء، و شعرت أن ما كان يراه «الشيخ الضرير»

فى الحقيقة هى تلك الشمس البازغة العمودية فى تلك الحالة الغير مألوفة والتى كانت تشبه فيها القمر عند بداية ظهوره، ثم أصرخ بأعلى صوتى، حتى أسمع صداه وأقول.

-أنها القيامة!

obeikan.com

الفصل الثانى
«هل يوجد أكثر من واقع؟!»

تمضى سنوات الطفولة وتمضى سنوات المراهقة التى كانت لا تعنى لى شئ سوى أن الأحلام التى كانت تراودنى تزداد ويزداد غموضها، و تزداد معها تكرارالأحلام التى أرى فيها أشخاص أو مسوخ أو حيوانات غريبة تلاحقنى ولا أستطيع الفرار منها وكان يرد فى نفسى أنها رموز لمخاوفى كالزمن والموت، وكنت أحلم أحيانا بأننى أقفز من مكان إلى أخر من على أسطح لمبانى ضخمة أو جبال، وحين أنظر إلى الأسفل لا أجد شيئا سوى فراغ أو دخان أو سحاب أو لا أجد شئ فى الأسفل بمقدار لا أعلمه ولا يعلمه أحد، ولا أعرف تفسير تلك الأحلام سوى الشعور بالخوف من المستقبل، مع العلم أن فى تلك الفترة بدأت أنصرف عن العزلة والأختلاء بذاتى والتأمل فى الكون ولكن كنت أسأل الكثير من مفسرى الأحلام فى ذلك الوقت عن تلك الأحلام، وكانت إجابات المفسرون تتشابه، أذكر حديث دار ما بينى وبين أحدهم حينما سألته عن تفسير تلك النوعية من الأحلام ، فكان ذلك المفسر أشتهر عنه تفسير الرؤى والأحلام وكان رجل ليس بعجوز وكان يجلس فى بيته المتواضع ممسكا بفنجان من القهوة فقصصت عليه تلك النوعية من الأحلام مختذلة فى ثلاثة منهن وكانت الردود انذاك مقنعة لى إلى حد كبير، بعد أن طرقت باب بيت

obeikan.com

ذلك المفسر ، رحب بي فكان الحديث بينى وبينه كالتالى.
-عندى ثلاثة أحلام أراهن باستمرار، أريد تفسير لهن!
يأخذ المفسر شربة من فنجان القهوة، ثم يعزم على بشرب واحد مثله قائلا
-عفوا يا بنى، تشرب قهوة، أتى لك بواحد ؟!
أرد عليه بخجل مبتسما
-شكرا ....هنيئا
- تفضل يا بنى ..أقصص رؤياك.
أخذ المفسر يستمع لى جيدا، و أنا أقص عليه رؤياى أو أحلامى فى تشوق لمعرفة التفسير قائلا
-حسنا...كما قلت لك من قبل هناك ثلاثة أحلام أراها باستمرار، الأول أن القيامة تقوم على وغالبا وأنا على معصية ولا أعرف حينها أين أذهب ولا أشعر سوى بأننى خائف، أما الحلم الثانى هو أننى أهرب من حيوان أو إنسان أو مسخ أو حتى شئ يقشعر بدنى منه حينما أراه فى الحقيقة كدجاجة أو أى نوع من الطيور!...ولا أستطيع الفرار منها، و الحلم الأخير هو أننى أقفز من مكان إلى أخر من أسطح مبانى أو قمم جبال وغالبا يكون ذلك ليلا وما هو بليل....!
المفسر يأخذ شربة أخرى من القهوة ثم معقبا على رؤياى قائلا
-مممممم.....بسيطة...فتلك الأحلام تراود كثير من الناس خصتا الشباب و المراهقين...كم عمرك؟؟
أجبته فى تعجب قائلا
-١٦ سنة.
ثم بدأ يفسر بإبتسامة فيها جدية
- تمام أنظر يا بنى...الحلم الأول تفسيره أن هناك ذنوب تفعلها ولا تستطيع التخلص منها ولذلك تحلم بقيام الساعة وهو رمز لتوبة قبل فوات الاوان، أما تفسير الحلم الثانى هو الوقت يتسرب من بين يديك وأنت لا تشعر ولذلك

obeikan.com

تحلم بمن يلحقك وأنت لا تستطيع الفرار منه، أما الثالث فانت لا تعرف ماذا تريد فتتنقل من فكرة إلى أخرى، ومن هدف إلى أخر وأنت تجهل ما تريد في الظاهر ولكن في الباطن تعلمه جيدا وهذا هو تفسير الحلم الأخير أى قفزك من مكان إلى أخر..تلك هى تفاسير أحلامك ...والله أعلم..!

أنا وقد حقا شعرت بالاقتناع فسألته

-شكرا...ولكن ما الحل؟؟

-الحل يا بنى كامن فى التفاسير، كف عن فعل المعاصى، ولا تضيع الوقت، و أنظر بداخلك جيدا لأنك تعرف هدفك ولكن تتجاهله فتتشتت!.

ثم شكرته قائلا

-شكرا...أنا فى غاية السرور.

و أنتهى الحديث بينى وبين مفسر الأحلام، شعرت أنذاك بالسرور، ظنا منى أن تلك هى التفاسير وإن كان جزء منها حقيقى ويشكر ذلك المفسر على مجهوده فأنه لم يقصر معى، ولكن حاولت جاهدا أن أصلح من نفسى ولكن ظلت تلك الأحلام تراودنى وكنت فى حيرة من أمرى، لماذا يحدث لى ذلك، مع العلم من طفولتى فى الوقت الذى كنت أحلم فيه أحلام سعيدة، كنت أحلم بتلك الكوابيس فأنا كنت صغير جدا كما قال لى من ذى قبل العم «قاسم» على أن أحلم بتلك الأحلام التى هى أنعكاس لذنوبى، و لكن كان القول البديهى الذى يخطر فى ذهنى انذاك ...من الممكن أن يكون شئ نسبى!....فأنا كنت مختلف عن بقية الأولاد فى سنى!..فمن البديهى أن يحدث لى ذلك!.....حجة أجدها بنفسى لنفسى! ...منطقى جدا!...لم تكف تلك الكوابيس عن مطاردتى برغم عملى بنصائح مفسر الأحلام، وفى يوم بينما أنا أسير بمفردى حيران فى طريق عتيق، إذا برجل عجوز جدا، لا أبالغ إن قلت إنه يستحيل أن يقل عمره عن مائة سنة، وملابس ذلك الرجل متسخة ولكن يبدو أنها كانت خضراء يوما ما، فنظرت له عجبا ونظر لى دهاءا، ولكن سرت ولم ألقى بالا مثله مثل أى إنسان، ولكن لا أعرف لماذا لم

أتخذ طريقى المعتاد للبيت وأخذت ذلك الطريق العتيق ؟!و الغريب أنه حدث لى نفس حالة الذهول التى انتبتنى حينما نهيت كلامى مع «شيخ المسجد الضرير» الذى تحدثت معه وأنا لم أتجاوز الثامنة من عمرى، حتى و دخلت بيتى وغلب على النعاس فنمت، فحلمت بأننى أسير فى نفس الطريق ولكن كالعادة الطريق لا أستطيع أن أحدد ملامحه ولا أبعاده وإذا السماء لونها أخضر، لون ثياب الرجل العجوز الذى رأيته فى ذلك الطريق فى الحقيقة ولكن قبل أن تتسخ، و ذلك ما أنتبنى فى الحلم «أن السماء خضراء بنفس لون ثياب الرجل العجوز «، ثم رأيت أمرأة عجوز تمشى على قدميها مسرعتا وتجر أمامها عربة خشبية عليها فاكهة وقطط وطيور ميتة وأخرى لم تمت، فكان مشهد غريب والأغرب أستيعاب تلك العربة الخشبية لتلك الأشياء كلها..ولكنه ..حلم!..لا عجب!ثم أخذت أركض خلفها .

ثم نديت لتلك المراة العجوز قائلا!

-أيها الرجل!

ثم ردت على تلك المرأة قائلة

-ماذا تريد يا «شارد»!

شعرت بالتعجب حينما نادتنى بأسمى قائلا

-كيف عرفت أسمى؟!

ثم أبتسمت تلك المرأة العجوز بسخرية.

- أتستغرب أننى عرفت أسمك!....ولا تستغرب أننى أمرأة وأنت تقول لى «أيها الرجل»!

الأعجب أننى أثناء ذلك الحلم أكملت الحديث ولم أستغرب من شئ من بعد ما قالته، و تحدثت مع تلك «المرأة العجوز» على أنها ذلك «الرجل االعجوز» الذى رأيته فى الواقع، نعم فإن الذى جعلنى أن أقول لها» أيها الرجل» هو أنه أنتبنى فى تلك اللحظة أنها هى «الرجل العجوز».

-قدم لى النصحية!

قالت لى بنظرة تملئها الحزن ولسان حكيم
- «يا غريب فى عالمك ...خلقت وحدك وتحيا وحدك وتبعث أمام الله وحدك، فلا أحد يعرفك إلا هو، ولا أحد يستطيع أن يطفئ بركان الحيرة ببرد الطمأنينة داخلك إلا هو، قد يفسر لك أحدهم شيئا لا يعلم تفسيره إلا هو، تلك حياتك البطل فيها أنت، و ما البشر إلا إنعكاس لصورتك أنت!..و لا تستهين بم يقره هو فى نفسك فهو ملهمها..يا «شارد»!.
و تختفى «المرأة العجوز» ولا أعرف لماذا طلبت منها النصيحة، و لكن كل ما شعرت به فى اليقظة هو الرهبة من ذلك الكلام الذى لم أعى معناه فى ذلك الوقت، و نسيت تلك «المرأة العجوز» التى ظننت أنها رجلا، ثم بدأت فى أن ألملم شتات أفكارى حينما أصبحت فى نهاية المراهقة وبداية الشباب، و بدء الإختبار الحقيقى فى معرفتى لنفسى ومن أنا؟!وبعد مرور تلك السنين عادت أشياء فجأة بيدى وأرادتى وقبل ذلك أرادت الله، وبدء أولها حينما عدت لبيتى بعد تلك السنين من ذلك الطريق العتيق ولكن فى مقتبل الشباب لأرى تلك» المرأة العجوز» التى ظننت أنها «رجل عجوز» وبجانبها شئ غريب مغطى كليا كما لو إنه تلك العربة الخشبية التى رأيتها فى الحلم، و تمر أمامى تلك اللحظة «واقعها وحلمها»، فأنظر اليها بعجب أكثر من ذى قبل، فتنظر لى بدهاء أكثر، فأمضى ولا ألقى بالا وبعد أن أعطيتها ظهرى شعرت بنفس حالة الذهول وبشعور «غير أرضى» حينما قالت:
-يا «شارد»...لا تريد النصيحة؟ !
ثم قلت حينما سمعت صوت «المرأة العجوز»!
-ماهذا؟!
ثم التفت فجأة فى ذهولى ولم أميز حينئذ ما بين إن كان هذا أمر واقع أم حلم!و إذا بالمرأة العجوز تكشف عن ذلك الشئ الغطاء إذا بها العربة الخشبية ولكن لا يوجد فوقها شئ، العجوز تجر أمامها تلك العربة الخشبية وتمشى بسرعة، فألحق بها ثم أقول لها فى دهشة وقد جف ريقى ..!

-أعطينى النصيحة ......أرجوكى....أرجوكى لوجه الله!
المرأة العجوز ولم تزد أو تنقص فى حرف، و أيضا أنا لم أزد أو أنقص فى حرف، كلما قالت جملة أكملت الباقى!
- «يا غريب فى عالمك ...»
-» خلقت وحدك وتحيا وحدك ...»
- « وتبعث أمام الله وحدك....»
- «، فلا أحد يعرفك إلا هو...»
- « ولا أحد يستطيع أن يطفئ بركان الحيرة ببرد الطمأنينة داخلك إلا هو، قد يفسر لك أحدهم شيئا لا يعلم تفسيره إلا هو.....»
- «تلك حياتك البطل فيها أنت، و ما البشر إلا إنعكاس لصورتك أنت!.. ..و لا تستهين بما يقره هو فى نفسك فهو ملهمها....يا شارد»!
لم أصدق نفسى وأختفت تلك المرأة فجأة وإلى الأبد، بعد أن سألتها فقالت لى.
-من أنتى...؟
- لا يهم من أنا!...المهم أن تذكرالله فى نفسك يذكرك فى نفسه...و اذكرنى وأذكر كلامى..!
بدأت أن أشعر أن تلك الجملة مألوفة لى قائلا
-عجيب تلك الجملة مألوفة لى..!
نعم ، تلك الجملة مألوفة ولكن بعد أن أختفت تلك العجوز شعرت بأن العالم من حولى يتغير إلى بخار باللون الأزرق، وفجأة أرتميت على سريرى لا أعلم كيف؟! وفجأة وجدت نفسى مستيقظ، ولا أعلم كيف؟! وصلت إلى منزلى، وهل نمت حقا أم لا؟! بل ما أنتبنى فى تلك اللحظة أن الواقع أختلط بالخيال، فلم أعد أعرف أيهما الواقع وأيهما الخيال، وكانت تلك هى أول رجعة لى إلى الماضى لكنها فى الحاضر..أما الرجعة الثانية كانت إلى المسجد القديم الذى كان يؤم فيه ذلك «الشيخ الضرير» الناس، وما حدث بعد

الرجعة بكل المقاييس مفاجأة لأنه الشئ الوحيد الذى لست أنا الشاهد فيه على ما حدث.!...بدون أى مقدمات عدت من جديد إلى صلاة الجمعة فى مسجد «الشيخ الضرير»، وإذا «بالشيخ الضرير» قد مات وأتى مكانه شاب غاية فالتواضع والبساطة أسمه «الشيخ فريد»، حتى إننى لم أظنه قبل أن يصعد المنبر إمام المسجد، لأنه يفتح باب المسجد بنفسه للمصلين، ويساعد كبار السن، و يساعد فى تنظيف المسجد قبل الخطبة يتصرف مع الناس بتواضع، حتى أننى كنت أجلس معه قبل الخطبة وأسأله أى سؤال يخطر فى بالى، وكانت خطبه تبعث فى الناس روح الإسلام والإيمان، و فى يوم من أيام الجمعة صعد «الشيخ فريد» المنبر، وبعد المقدمة، خطبة الجمعة بدء الدخول فى الموضوع وكان الموضوع عن.

-الحمد لله..نستعين به ...و نستهديه...و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا أم بعد أخوانى وأخواتى فى الإيمان موضوعنا اليوم بإذن الله تعالى عن «فتنة الشيطان لبنى الإنسان»!...أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم بدءت أنا والمصلين نستمع جيدا وبتركيز، بعد أن شرب « الشيخ فريد «كوب من الماء وهو على المنبر وأخذ نفس عميق ثم بدء.

- الله المستعان...قال الله المولى تعالى فى كتابه العزيز،، بعد بسم الله الرحمن الرحيم((قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين(٨٢)الا عبادك منهم المخلصين(٨٣))) إلى أخر الأية ...صدق الله العظيم ...وهنا يا أخوتى فى تلك الأية الكريمة، يتوعد أبليس عليه لعنة الله بأن يغوى الناس، ومن فجره يقسم بالله... اللهم ما أجعلنا من عبادك المخلصين...أمين..امين

يرد المصلون قائلين

- أمين.

يكمل «الشيخ فريد « حديثه قائلا

- أخوتى فالله لا يظن أحد لأننى إمام لا يستطيع الشيطان أن يفتننى ..أعوذ بالله..ها هو الأمام الشافعى، » روي ان أبليس سأل الشافعي رضي الله عنه:

ما قولك فيمن خلقني كما اختار، و إستعملني فيما اختار، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار، أعدل في ذلك أم جار؟...فنظر الشافعي في كلامه ثم قال:يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسئل عما يفعل. فاضمحل إلى أن صار لا شىء، ثم قال: والله يا شافعي لقد اخرجت بمسئلتي هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية.»

ضحك بعض المصلون قائلين

- الله أكبر...الله أكبر عليك يا شافعى.

- الله ..الله يا شافعى....من الممكن أن يتساءل أحد المصلين ...و يقول يا شيخ كيف هذا؟...نحن فى عصر العلم والأنترنت!...و غيرنا يصنع الصواريخ ويصعد للفضاء!...أقول له بسم الله الرحمن الرحيم((وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٦) يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون(٧)))..صدق الله العظيم، ليس كل ما ظاهر لنا حقيقى وليس كل ما لا يظهر لنا غير موجود...وكيف نكون مؤمنون ولا نؤمن بالغيب..فلا يغرنكم متاع الدنيا...الله قادر على كل شئ.

- الله يفتح عليك يا شيخ فريد.

بطبعى أنا كثير الشك فأخذت أتساءل صحيح كيف ذلك؟!...كيف يتجسد الشيطان للإنسان ويكلمه، من الصعب إستيعاب ذلك، ثم بدء فى سرد شئ أخر قائلا.

-أخوتى فى الله ..خبرنا نبينا عن الشيطان فقال»إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم» صدقت يا رسول الله....يأخوتى فى الله أحذروا الشيطان فإنه يوقع بينكم العداوة والبغضاء....و أخيرا قال تعالى)) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء)) صدق الله العظيم .

وبتلك الكلمات نهى «الشيخ فريد» الخطبة بعد أن أمن وأمن الناس خلفه

قائلا

-أخوتى فى الإسلام من يحب أن يجلس معى لنكمل حديثنا بعد الصلاة فليتفضل..و لكن الأن قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله وصلوا صلاة مودع.

فرغنا من صلاة الجمعة ثم جلست لأسمع كلامه ثم بدأ «الشيخ فريد» فى تلخيص الخطبة فى بضع كلمات باللغة العامية.

-»ها يا جماعة عرفتو مغزى الخطبة النهار ده ...يبقى...أيه...أول حاجة أعوذ بالله.. سيدنا الإمام الشافعى شاف إبليس وأتكلم معاه وكان عاوز يخرجو... من أيه؟..من العبودية للألحاد بس معرفش وقلنا أن الشيطان معرفش يخلى العرب يعبدوه لكن أكتفى بأن يعمل مشاكل بينهم...شغل أبلسة..بقى.. هههه»

ثم خاض «الشيخ فريد»فى خطاب روحانى أخر، و أثناء ذلك الخطاب كنت فى حيرة من كلام»الشيخ فريد» عن تمثل الشيطان فى صورة إنسان أو أن يظهر بشكله الحقيقى للإنسان ويحاول أن يخرجه من العبودية، و محاولة التحريش بين الناس وخلق العداوة بينهم وازدادت الحيرة فى نفسى وأتساءل..كيف؟؟ ...حتى حدث شئ عجيب!....

دخل رجل غريب الأطوار فجأة إلى المسجد ولم يكن معنا أثناء الصلاة، و كنا نجلس أنا وتسعة عشر رجلا تقريبا حول «الشيخ فريد»، ولكن ما لفت نظرى هو الشعور بالإشمئزاز والخوف فى أن واحد من ذلك الرجل خصتا حينما جلس فجأة بيننا وبقوة على ركبتيه وكاد أرتطامه بالأرض يهز المكان، ولا أعرف شعورى منذ البداية بعدم الراحة فى وجوده منذ رؤيته حتى قبل أن يتكلم من شكله العجيب، فكانت أوصافه كالتالى، كان لون وجهه أسمر ولكن مصطحب بأسمراره الأصفرار والشحوب، وكان رأسه أصلع والباقى من شعره من الجوانب طويل وأبيض يشوبه اللون الرمادى، و كانت عيناه جاحظتان شديدة الأصفرار ويملئهما القبح والحقد والشر والشرر والعداء وكانت رموشه أعلى العين غير موجودة ولكنها أسفل العين ولونها رمادى

وكانت التجاعيد والهالات السوداء تحيط حول عيناه بغزارة، و كان حينما يفتح فمه كان له نابان صغيران من بين أسنانه العلوية، وجهه كان ملئ بالبثور، ورقبته عريضة كرقبت الثور العجوز وتملئها التجاعيد، و الأبشع منظر يديه العجوزة النحيفة جدا وأصابعه الطويلة الرفيعة التى تملئها الشعر الأبيض وأظافره العتيقة، و جلبابه الأبيض المتسخ من أعلاه إلى أسفله، ولغته الغريبة فلم يستطع أحد تحديد لغته، و كما قلت قبل أن يقول ذلك الرجل شيئا، كنت أشعر بالقلق فى وجوده، حتى أن تأكدت من ذلك الشعور حينما قاطع حديث «الشيخ فريد» لنا، قائلا له بصوت أجش وجهور:

-يا شيخ...هل رأيت الإله؟!

ارتبك الشيخ»فريد» ثم قال!و كان هذا أيضا حال المستمعين

-ماذا تقول...يا أخى؟!

فنظر الجميع إلى ذلك الرجل فى سكون والدهشة تملئهم، ثم عاود السؤال على»الشيخ فريد»و لكن بنبرة أعنف ونظرة أكثر حده.

-قلت لك ..هل رأيت الإله؟!

الشيخ «فريد» مازال غير مستعوب لسؤال هذا الرجل

-ما بك يا أخى؟!

شعر الجميع و«الشيخ فريد» بالتوتر»، حتى طرح «القبيح» السؤال للمرة الثالثة بصوت أعلى وأكثر حدة، فأجابه « الشيخ فريد» ولكن فى صوته ضيق وألم.

-أنت تسمعنى جيدا...هل الإله موجود؟!...هل رأيته؟!

- يا أخى!...لم نرى الإله ..و لكن عرفناه بالعقل!

«الرجل القبيح» أبتسم بخبث، ثم سأله

-كيف؟!..

رد الشيخ «فريد» مسرعا

-أنظر حولك، أنظر إلى.......!

ثم قاطعه ذلك»الماكر»قائلا بسخرية وهو يضحك بخبث .
-هاهاها..أنظر للسموات! ..أنظر للأرض!...أنظرللجبال!...أنظر لنفسك مما خلقت من «طين»!...أنا أعلم كل هذا وأكثر!.
الشيخ «فريد» يزداد انزعاجه من الرجل القبيح، فسأله
-ماذا تريد؟!
إزدادت أبتسامت «الرجل القبيح» خبثا، ثم قال
- أريدك أن تقنعنى أكثر مما أنا مقتنع به ...مع العلم أنا أكثر منك علم !...و أنا أكثر خبرة!
ثم بدأ يرد عليه»الشيخ فريد» بهدوء مرة أخرى
-عرفنا الإله بالعقل، و عبدناه بالدين وبعث لنا الله الرسل بالمعجزات.
ثم يضيق «الرجل القبيح» مرة أخرى على الشيخ»فريد» قائلا
-أنا أعلم ذلك، أنا أعلم ذلك، قلت لك أنا أكثر منك علم وخبرة! وأن أقنعتنى لم أقتنع !...من هنا الى اليوم الدين لن أقتنع!
ثم حدق «الشيخ فريد» فى كلام ذلك الرجل، ثم قال:
-لماذا قلت إلى يوم الدين؟!...إن كنت لا تؤمن بوجود الإله..إذا أنت تعرف أن هناك حساب وأخرة!
أنزعج «الرجل القبيح»فجأة ولكن رد بهدوء يملأه رغبة منتقم ومتحد!
-أصمت..و جاوب على أسئلتى ..أنا هنا فقط من أسأل وأنت تسمع وتجاوب!
ثم قام أحد الجلاس غاضبا لا أعرف أسمه ولكنه «رجل ضخم»، ثم قال لل»رجل القبيح».
-كف عن ذلك الكلام يا قبيح!...لقد طفح الكيل منك...أخرجوه
ثم يتجاهل «الرجل القبيح» كلام ذلك الرجل الضخم ويصر على أن يسأل الشيخ!
-يا شيخ...ما رأيك ..فى تلك المسرحية العبثية؟؟!
- يا....

لم يكمل «الشيخ فريد» الكلام، من صياح بعض الناس قائلين.
-أخرجوه ...أخرجوه!...ذلك الكلب.
ثم رد عليهم ذلك «القبيح»رد غريب وهو يضحك بيئس !
-خارج منها !...خارج منها!...ولكن بعد أن أطرح أسئلتى!
أشاهد كل ذلك وأنا فى صمت لم أستطع فعل شئ سوى المراقبة فى صمت، و لكن ما جعلنى أتعجب هو أستخدام ذلك الرجل للفظ»خارج منها!.. خارج منها»!...ما هذا ؟...ماذا يقصد؟..لماذا أستخدم صيغة المؤنث بدلا من المذكر؟..فالمسجد مذكر، على أى حال قام أمامى بعض الناس الذين قالوا «أخرجوه، أخرجوه»!.طائفة أخرى من الناس قائلة.
الطائفة الثانية من الناس: -»أدعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»..يا أيها الناس أهدؤوا..و تعالوا نتكلم معه بالحسنة واللين.
ثم تزداد الحدة بين الطائفتين!
الطائفة الأولى من - لا ..أخرجوه.. أو لم تسمعوا ما يقول...أنه يريد فتنتنا!
فترد «الطائفة الثانية»
-لذلك يجب علينا أن نحل تلك الفتنة بالحسنة.
أبت الطائفة الأولى المعارضة للتفاهم مع ذلك «الرجل القبيح» إلا وأن تخرجه من المسجد بالقوة، والأخرى تأبى إلا أن تتحاور معه بالحجة والموعظة الحسنة، حتى أخرجوا ذلك «اللعين القبيح» من المسجد، وحدث نزاع بين تلك الطائفتان فى المسجد بسبب ذلك»الرجل القبيح».بعد أن طرد شر طردة، ولكن العجيب أنه كان يضحك ضحكة صفراء لعينة تملأ أرجاء المسجد، كما لو أنه «منتصرا»!...وحينما ذهبت مسرعا خلف ذلك الرجل..لم أجد له أى أثر خارج المسجد!..و أقول لنفسى كيف أختفى؟!...و برغم قصر المسافة بين المسجد والبيت، إلا أننى شعرت بطول الزمن حينما، أدركت أن ما قيل فى الخطبة قد حدث فى الواقع بحزافيره أمامى، و قد حدث ما قطع الشك باليقين، حتى صعدت إلى منزلى وقد فرغت أختى من الصلاة

فى البيت، وكانت جالسة على سجادة الصلاة نظرت إلى ثم قالت لى حينما رأتنى مذهول!

-شارد ...لماذا وجهك أبيض ومذهول؟؟

ردت عليها فى حيرة وهول

-لا.. لا شئ!

ثم تقول أختى لى مرة ثانية

- لا هناك شئ ما قد حدث لك...وجهك غير طبيعى!

ازدادت حيرتى فيما أقول

-قد حدث شئ اليوم فى صلاة الجمعة غريب..غريب!

نظرت إلى «أختى»مستفهمتا ومتعجبة

-قل...ماذا حدث؟!

ثم قصصت الواقعة على أختى بالتفصيل حتى بدت علامات التعجب تظهر على وجهها ثم قالت.

- ما هذا..يلا العجب!..أمر غريب حقا!..كيف حدث؟!...سبحان الله!

ردت عليها فى حيرة

- لا أعرف ...حقا سبحان الله!.

وكالعادة تأتنى تلك الحالة التى لا أستطيع فيها التفرقة بين الواقع والحلم حتى أغوص فى النوم العميق، مع العلم أن تلك الحالة عادت لى فى تلك اللحظة بعد أن ظلت منقطعة عنى بضع سنوات، وأثناء النوم حلمت بأننى فى ذلك المسجد ولكن حينما كنت فى صغرى أتى لى ذلك المسجد أصغر حجما ولكن فى تلك المرة أرى ذلك المسجد أوسع مما ينبغى فلا أستطيع من أن أرى أوله من أخره، و أرى فيه تحف وتماثيل وجسور فى أرجائه كما لو أنه متحف، ولا أرى سوى « الشيخ فريد»وحده صامت ثم، أجلس أمامه ويظل صامتا ولا يبتسم، و كأنه لا يرانى، حتى فجأة أسمع صوت دب أشبه بصوت الأنفجارات ولكنه صوت أقدام ذلك «الرجل المسخ» أو كما أدركت فيما بعد،

أو كما وقر فى نفسى أنه الشيطان!.
بعد أن ربط الأحداث ببعضها، و أثناء ذلك الحلم رأيت ذلك «الشيطان» برؤيتين فى نفس الوقت بمقدار لا يعلم كيفيته إلا الله، الرؤية الأولى صورة «الرجل المسخ» حينما طرح الأسئلة على «الشيخ فريد» ورؤية الثانية فى نفس الوقت فى صورة « الشيطان» الذى بدى لى على عكس ما هو فى أذهان البشر مسخ له قرون ولونه شاحب ولكن مجرد مسخ لا يوصف من دمامته وحينها يتحدث معى، ولكن فى الرؤيتين لا ينطق أسم»الشيخ فريد» لا ينطق إلا أسمى»شارد»، فحينما ظهر من بعيد ذلك «الشيطان» وأتى مسرعا نحونا «أنا والشيخ فريد»، جلس بقوة على الأرض كما كان فى الحقيقة ولكن تلك المرة صوت نزوله على الأرض أشبه بصوت الرعد فى الأذن، وكنا نجلس بعيدا نحن الثلاث عن بعض، بمسافة لو فى الحقيقة لما استطاع أحد منا أن يسمع الأخر، وأخذ يطرح « الشيطان» الأسئلة على «الشيخ فريد» وكان «الشيخ فريد» يريد أن يجاوب على أسئلته فى الحلم لكن صوته كان مخنوق ومكتوم فلا يستطع الكلام وكذلك حالى فكان الشيطان فقط هو الذى يتكلم فى الحالتين يسئل نفسه ويجاوب على نفسه، وكان أنطباعى فى الحلم أنذاك أنه قد تحققت مقولته فى الحقيقة» أنا فقط هنا لأتكلم وأنتم تسمعون»، فينظر الشيطان إلى الشيخ فريد ليسئله ثم ينظر ليجاوب، وكلما سئل سؤال وجاوب عليه تقل المسافات بيننا نحن، وبدء يسئل الشيخ فريد ويطرح الإجابة على، فأصبح الحوار ما بين « الرجل القبيح»لنفسه بعد أن ظهر على حقيقة»الشيطان» قائلا:

-هل الإله موجود؟...يا شارد!

يجاوب الشيطان وأرى شرر فى عيناه

-نعم، بالـتأكيد!..لاشك فى ذلك!

ثم قلت المسافة قليلا..وكلما قلت المسافات بيننا ..أرى جزء من السماء برغم وجود سقف وجدران!

-كيف ذلك؟!

ثم تتحول عينان الشيطان التى كانت شرر إلى شعلة خافتة

-كنت شاهد على ذلك!

ثم قلت المسافة، و أتسعت رؤيتى للسماء، ثم يطرح» الرجل القبيح»مرة أخرى سؤال أخر

-ماذا تعرف عنه؟!

ثم تتحول عينان الشيطان مرة أخرى من شعلة خافتة إلى شعلة قوية

- هو واحد لا إله الا هو.ليس له شريك فى الملك، يبعث رسله بالحق، وتعالى عما يشركون، و تعالى عما يصفون !

ثم قلت المسافة أكثر، و أتسعت روئيتى للسماء أكثر!و يطرح «القبيح» سؤال أخر

-و لطالما أنت تعلم أنه موجود لما تصد عن عبادته؟

ثم تتحول عينان الشيطان من شعلة قوية إلى نار لها دخان ولهيب.

-حقد، و غل على من خلق من طين وكرمه، و أنا من نار وأنا الأحق!

أقتربت جدا المسافة وأوشكت ملامح الشيطان أن تبرز لى..و أوشكت السماء على أن تظهر لى وتختفى الحواجز!ثم يسأل «القبيح» أخر سؤال قائلا

-و ما غايتك الأن؟

ثم أرى عينان الشيطان كأنها الجحيم!

- مشاركت بنى الإنسان لى فى جهنم ..حتى لا أجلس وحيدا...و أكون قد خسرت كل شئ الجنة وغوايتهم!

ثم نظر إلى الشيطان بعد أن أختفى «الشيخ فريد» و«الرجل القبيح» صورته البشرية التى أختبأ فيها تماما، وبعد أن أختفت الحواجز وبدت السماء ظاهرة أمامى سوداء بلا نجوم ولا قمر ولكن بها شمس أشبه بالقمر قائلا لى

-أحبيك!...أحبيك!..على معرفتك لى من اللحظة الأولى

ثم أشار الشيطان إلى الشمس العجيبة الظاهرة ليلا قائلا:

obeikan.com

- أرأيت ذلك المشهد من قبل!

ثم أختفى، وبقيت وحيدا، كما لو أنه حقق ما يريده، ثم قلت فى رعب وهلع.

-القيامة!

obeikan.com

الفصل الثالث
«غابات الفانتاريم»

الخال «حكيم»...الخال «حكيم»رجل تخرج من كلية العلوم تخصص فى علوم»الفلك والفضاء» لحبه وولعه بكل ما يتعلق بالسماء وما يسبح فيها وعمل فى تخصصه، ولكن حينما ولدت كان على المعاش برغم أنه خالى ولكن الفارق بينى وبينه فى السن كالفارق مابين الجد والحفيد، فأنا وحينما ولدت وأنا أرى شعره أبيض شكله لم يتغير حتى بعد كبره فى السن فكان يجلس فى منزله العتيق ذو الأسقف العالية ! بعد وفاة زوجته وهجرة أبنه الوحيد «لإنجلترا»، فكان يجلس وسط كتبه يقرأها ويتدبرها، وهو من قام بتربيتى حينما توفى والدى وأنا صغير، كان ممتلئ ومعتدل فى الطول وكما قلت كان شعره أبيض ويرتدى دائما نظارة عدساتها أشبه بعدسات النظارات الشمسية وكان لون بشرته بيضاء مشربة بالحمرة وكان عنده لحية بيضاء مستديرة على وجهه، وكان حينما يخرج خارج بيته كان حينئذ يرتدى دائما بنطال يرفعه بحملات البنطايل وكان يرتدى دائما «ببيون» فى عنقه على قميص أبيض فكان أشبه بعلماء الغرب والأجانب حينما يخرج، وكان يمسك بيده عصاته الخشبية ذات المقبض الحديدى فى نهايتها وكان يجلس فى منزله بجلباب عليه عباءة ويمسك بيده اليمنى سبحة وهو جالس على كرسية الخشبى الهزاز الذى كان يعتز بإقتنائه، يحتسى مشروبه المفضل الساخن»النعناع

obeikan.com

بالليمون» بجوار النافذة يسمع القرأن الكريم تارة وتارة أخرى الموسيقى.. لطالما كان يشبهوننى الناس بخالى «حكيم» وكان وقد إشتق الكثير من أسمه، كنت لا أسعى إلى الإقتداء به ولكنى علمت فيما بعد إنى فى كثير من تصرفاتى أشبهه، أشبه ذلك الخليط العجيب والتناقض الجميل اللاذان وضعوا فيه، كان الفنان المحب لكل الفنون الراقية المحب للشعر وعالم الطبيعة بالفطرة، والمتدين عن حق لم يكن من»سفهاء الأحلام»، ليس بالمتشدد ولا المتسيب، وهذا ماكان يجعله دائما المثل الأعلى والرمز، برغم اختلاف كثير من الناس معه ولصعوبة فهم مداركه ولأفقه الواسع كنت أفهمه كما يفهمنى فكان عقله» مجرات تتكاثر فى فلك متسع» لا يقف عند حد!، و كان دائما ما كان يطلق على ويلقبنى بال»العبقرى» عكس ما كان يرى الناس، و لكن تلك الكلمة كانت وسام على صدرى اعتز به كنت أنسى الوقت مع خالى»حكيم» لأنه لا وجود أصلا للوقت عندما نتحدث وكان له فهمه الخاص للدين فكان متدبر عظيم لأيات الله كما أنه كان يتدبر كل شئ وأحيانا من فرط تدبره لأية وتخلل معانيها داخله كان يبكى وكان من النادر بكاءه فى المعتاد، و كان يتكلم فى أمور شائكة وكان كلامه مقنع حتى لو أختلف الأخرون معه، كان محب لسماع الشيخ «النقشبندى»كما أحب والشيخ «محمود الحصرى»، و كان رأيه فى «الحصرى» بأنه مبدع ورائع وفى «النقشبندى» أنه صوت من السماء، وفى يوم من الأيام كنت جالس أنا والخال «حكيم» فى صغرى صباحا، كعادته أمام النافذة على كرسيه الهزاز وأنا متربع على كرسى خشبى عادى أمامه أتناول فطورى، ثم رأيت خالى «حكيم» يبكى حينما سمع صوت الشيخ «الحصرى» فى المذياع حينما جاء إلى قول الله تعالى.

-»الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم».

ثم نظر الخال «حكيم»لى مبتسما ويهز رأسه عجبا على تلك الأية ثم أحتسى خلسة من مشروبه الساخن المفضل ثم نظر إلى السماء فترة من خلال النافذة المجاورة له ودمعة تلمع فى عيناه تترد السقوط منها، جففتها رياح خفيفة عابرة من النافذة فقال!.

- نور فى مصباح!... داخل زجاجة!....لم تمسسه نار!...الله بكل شئ عليم!... سبحان الله!..سبحان الله!

ثم سكت ثم قال

-شارد...ربك علام الغيوب!

ثم ببراءة الأطفال وبعد أن أخذت شربة من كوب اللبن الذى بيدى.

-لما.....يا خالى؟!

ثم نظر إلى الخال «حكيم «بعدما كان ينظر من النافذة، نظر إلى وهو يمسح على أطراف شعر لحيته البيضاء بأصابعه، كأى عالم أو حكيم!

-حينما سمعت تلك الأية تذكرت «إديسون»...»توماس إديسون» مخترع المصباح الكهربائى، هل سمعت عنه ..درسته فى المدرسة؟!

ثم ردت عليه مسرعا كأى طفل فرحا بمعرفة معلومة.

-نعم ولكن أعلم فقط أنه مخترع المصباح الكهربائى وأنه لم ينجح من أول مرة .

-صحيح...أتعلم ما الذى أنجح تلك التجربة بعد فشل؟!

-لا!

الخال حكيم يبتسم إبتسامة سخرية من بساطة السبب وأعجوبة القدر!

-زجاجة!

ثم ضحكت أنا تلك المرة بسخرية وتعجب فى أن واحد قائلا

-زجاجة!

-نعم زجاجة حول المصباح لتغطى السلك المتوهج فتزيد الإضاءة...الا تستحق تلك الأية حينما تسمعها أن تقول سبحان الله!

ثم بدت على وجهى علامات التعجب حينما فكرت فى الأمر وعقدت مقارنة بعقلى الصغير حول تلك الصدفة الغريبة، ثم قلت بعدها.

- سبحان الله..حقا!

-هل تعلم يا شارد أن النبى قال «إن القرأن لا تنقضى عجائبة ولا يمل من أن تسأله»، حينما تكبر، سوف تعلم أنك كلما قرأت القرأن الكريم وتدبرت أياته، سوف تشعر أنك تقرأه لأول مرة.

- حقا....صحيح لا تنقضى عجائبه؟!

-نعم، فقط لتعلم أن فوق كل ذى علم عليم!...و لو كان علم «إديسون «من البداية أن الحل الأخير لنجاح تجربته هى تلك الزجاجة ما كان مصير المحاولات السابقة الفشل.

نزلت من على الكرسى الذى كنت متربعا عليه طوال الوقت ثم أستدرت ودخلت فى غرفتى التى خصصها لى خالى «حكيم» فى بيته العتيق لأبكى، فكنت دائما ما أفكر فى كلام «خالى حكيم « ليلا ونهارا.

و لطالما ذلك الكلام كان له أثر فى توسيع مداركى وحافز لى على أن أواصل التفكير، فكان كلام خالى بمثابة الحلوة التى تعطى لطفل صغير، حتى وأنا فى أواخر المراهقة وفى مقتبل سن الشباب ما زال الكلام مع خالى «حكيم «له بريق خاص برغم من ان تساؤلاتى وحيرتى تكبر معى، الا وكنت أجد دائما الحل فى الكلام مع الخال»حكيم» ولكن لطالما نصحنى، بأن أعلم أن الإجابة بداخلى وفى عقلى الباطن ويجب أن أعتمد على نفسى فى البحث عن تساؤلاتى، وزاد كلامه على اعتمادى على نفسى كلما كبر فى سن وأشتد عليه المرض، فكان كلامه فى مرضه بعيدا عن العلم قريبا من الفلسفة، كما لو أنها النهاية ولكن إزداد كلامه سحر وبريق، فحينما أشتد عليه المرض كان فى بلد أخر بعيد ولكن العائق الوحيد من أن أزوره فى الغربة هو التردد والخوف والكسل !ولطالما رافقونى فى كل مكان ولكن قبل أن يسافر بعيدا إلى تلك البلد دار بينى وبينه حوارين الأول كان قبل أن يسافر تلك البلد وكان

obeikan.com

يجلس امام النافذة الجلسة الأخيرة ويرى الشمس وقد بدءت فى الغروب عن الأرض وبعد سكوت طويل عن الكلام، يقول فجأة وفى حزن وبدون مقدمات وبسخرية.

-»من ساعت ما وعيت على الدنيا»...شارد أسمعت تلك الجملة من قبل؟!

وبرغم من أن الحديث تلك المرة وأنا فى سن الشباب، الا وما زلت أنظر له وكأنى ذلك الطفل الصغير، الذى تلمع عيناه تشوقا لمعرفة الحكمة قلت له وأنا فى تعجب وخوف من تلك الجملة ونبرات صوت خالى»حكيم» المنتهية

-نعم ...أكيد..سمعت بها كثير، و لكن لماذا تسألنى؟!

الخال حكيم وقد أتسعت عيناه لأرى الشمس تصنع بريقا بداخلهم ونظراته مليئة بإيمان وتحدى ليحتفظ ببريق عيناه أمام تلك شمس التى تغرب وقال بصوت يملئه السكون والجدية فى تلك المرة.

-هل تعلم وهل يعلم بطل «الفيلم» أين ومتى وكيف ظهر لأول مرة وأين ومتى وكيف أنتهى به الحال ؟!..وكيف كانت حياته فى ساعة ونصف أو ساعتان.

غلبت على الدهشة والصمت الطويل، ثم ردت بصوت خافت متقطع.

-لا.....لا أعلم!

ثم إزدادت الحدة فى صوته والبريق فى عيناه!

-أتعلم متى تدخل فى الحلم ومتى تخرج منه؟؟!....أتعلم فى أى زمن أنت وكيف تنتقل من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن، ومن الذى تحركه وتتحكم فيه أنت ومن الذى يحركك ويتحكم فيك.....و كم أستغرقت أيام!... قرون!..ألاف!...ملايين السنين!.. متى كان الفجر وما معناه والغروب ومعناه ؟! وهل كان هناك فجر أو مغرب ولا أشباه..وكيف كان كل ذلك أمامك يحدث تموت وتحيا فى أن واحد وتعجز عن رفع جسدك وتطير بلا أجنحة فى أن واحد، فى دقيقة ودقيقتان بداخلهم ألف أو ألفان أو يصبح مصير الوقت الأوهام والأنعدام؟!

obeikan.com

تزداد الغربة مابين غرابة الكلمات، واتماسك عن أزراف الدمع فقد اقترب عقلى بالشعور بتلك العجائب والأهوال !

-لا...لا أعلم...يا خالى .. ومن يعلم!

أقولها بنسيان وفى حالة من حلات السكر العقلى»لا»، ثم يخفت صوت خالى»حكيم» مرة أخرى لكن تأخذ عيناه نصيب خفوت صوته ببريقا يسطع بداخلهما.

-متى وكيف دخلت الحياة الدنيا؟؟... متى كان إدراكك ووعيك للوجود ؟!...متى كنت؟ كيف الخروج منها ومتى؟؟...كيف قضيت بسرعة الأيام والسنين؟...ما الذى سقط من ذاكرتك وحساباتك؟؟....و ما الذى أحتفظت به ؟؟...ولماذا؟؟...صدفة أم حكمة؟؟

أنا أخذت أفكر وبعمق وازداد صمتى ومجاهدتى لسقوط دمعة، دمعة الحيرة من فلسفة تلك الحياة، ثم قلت له بعد سكوت طويل خمس كلمات شاردات، وأنا أشعر وكأننى بعيد عن الأرض»غير أرضى»!

-لا.. أعلم.. أى ..شئ ...عنى!

ثم عادت الإبتسامة لوجه خالى «حكيم» تلك المرة . ونظر لى فقال.

-الفلم...الحلم ...العلم ...واحد!...هل علمت ما تحمل تلك الجملة من عمق؟!

قد شعرت بعد نظرته تلك، بأنى عدت من جديد إلى الأرض فقلت له.

-نعم

ثم سكت» الخال حكيم» إلى هنا وأكتفى بذلك القدر من الكلام، ثم كان فى اليوم التالى سفره، و كان فراقه فراق المسافر إلى عالم غريب، وفى سفره كنت لا أكلمه ولا يكلمنى، ولا أعلم عنه شئ ولا يعلم عنى! ليس لشئ أكثر من النسيان، وكنت أشعر دائما بالوحدة ولكنى كنت قد تغيرت، كنت أعتمد على نفسى فى أن أجد إيجابات على أسئلتى، ولكنى كنت أشعر بالوحدة وبرغم ذلك كنت حينما أتذكر خالى وكلماته كنت أتكاسل عن السفر اليه،

ثم بعد طول انتظار يرن جرس الهاتف لأرفع السماعة، إذا هو ب»خالى حكيم» وكان ذلك أخر حوار بل كانت أخر كلمات بينى وبين الخال»حكيم» وكان قد ظهر على كلماته مرضه وان مرضه قد وصل إلى حد النهاية ..ما قبل الموت!..قال لى بصوت مرتعش.

-شارد...بنى...إنى افتقدك!

و بصوت يملئه اللهفة والخوف عليه ردت عليه

-خالى..أشعر بالوحدة بدونك فى تلك الحياة...ماذا حدث لصوتك؟!

ثم رد على بصوت غير واضح وقد بدأت أن ألمح صعوبة فى التنفس عنده

-لا شئ...لن أقول لك أكثر من «كن غريبا فى تلك الدنيا» كما قال النبى!

جحظت عيناى أثناء الكلام معه حينما وقر فى نفسى أن هذه المرة قد تكون هى أخر مرة أسمع فيها صوته

-لماذا؟ّ...خالى ما بك؟!

-لا عليك فقط عليك»بالوحدة والصمت والغربة وكثرة التدبر»!

-لماذا ...أنا قلق عليك يا خالى؟!

ثم رد علي متعبا مسرعا لينهى الكلام

-فقط أعلم أنك البطل الوحيد فى تلك الحياة..أنت بطل تلك القصة...ولن ينفعك أحد حينما تقف أمام من بيده الحكم كله ..الحل بداخلك!...حينما يتخلى عنك الناس ولا يملك أحد لك حلا فأعلم أن الحل من داخلك...على أى حال لا أحد يملك لك حلا ..الحل فى نفسك..يا شارد!

-خالى ......!

-سأكون معك دائما بروحى...فقط أردتك أن تعلم أن.....!

-خالى ...خالى...لما سكت!

و كانت تلك أخر كلمات له، و تلك المرة لم تغرب الشمس عنه بل هو من غرب عنها، ولم أراه إلى جسد ميت فقط بعدها، لقد بلغت بأنه عاد ولكن لم يقل لى أحد أنه مات ولكن قيل لى أنه يموت، حينما علمت ذلك أخذت

أركض وأركض كالمجنون لا أشعر بشئ حتى بقدمى اللتان أركض بهما، حتى رأيته فى كفنه مغطى عادا وجهه الذى يشع نور ورائحة الورد والمسك التى تنبعث منه، لم أبكى من الصدمة، لم أشعر بأنه مات إلى الأن!..ولكن ذهبت لأدفنه حينما عاد إلى بلدنا معاتبا نفسى على أننى تكاسلت وترددت فى أن أراه قبل أن يموت، و كنت أريده ان يعلم أننى تغيرت كثير!...و اردته ليعلم الما وصلت إليه بعقلى وبإيمانى!...لأننى أعلم لا أحد سوف يفهمنى بعده، إلا الله!...فأخذت أنظر له وهو يدفن وألوم نفسى أكثر من مرة واعاتبها، ولكن صدق خالى «حكيم «حينما قال إنى سأكون معك بروحى، لم يغب عنى كلما شعرت بالحاجة إلى إجابة، وان الله فقط قد أخذ جسده ولكن ابقى روحه معى دائما وأعتدت على زيارة قبره والجلوس أمامه، و التفكير فى أسئلة كثيرة ككيف حاله الأن ماذا يشعر؟..كنت دائما برغم نصائح خالى»حكيم» بأن أكون وحيد الا أننى كنت دائم البحث عن أشخاص مثلى يشبهوننى!

و كنت فى ذلك الوقت وبعد وفات خالى «حكيم» بفترة ليست بقليلة وأنا فى سنتى الجامعية الثالثة من كلية أداب قسم فلسفة وعلم نفس كلية الشعب كما يقولوا الناس ولكن أحببتها لولعى بكل ما يدور داخل النفس البشرية وخارجها ولمعرفة لماذا يخطأ الإنسان؟!، و لكن من منا لا يخطأ ولو مرة فى أختيار شئ يتعلق بمصيره من معصوم من الخطأ والنسيان ؟!..نحن بشر، و لكن المهم أنى كنت على مشارف التخرج وقد أعتدت على التدبر وحدى فى البيت أو فى أى مكان مفتوح لا حاجز بينى وبين السماء فيه والتفكر فى كل ما كان وما يكون، قليلا ما كنت أعرف التدبر والتفكر فى مكان مغلق ولكن أحيانا حتى فى المواصلات التى أركبها «مترو الأنفاق» كنت افكر، كان يجلس فى أخر عربة من عربات»مترو الأنفاق» ذميل لا أعرف أسمه ولكنه كان معى فى الكلية، فهو قصير القامة ولون بشرته سمراء مائل للنحافة وبرغم انى لا أعرفه، ولا اعرف أسمه لكنى كنت أرمى عليه السلام .و دائما ما أراه يمسك بيده كتاب يقرأه أو القرأن الكريم، ثم يحك بيده فى شعر رأسه ويفكر

أحيانا بصوت عالى وفى مرة من المرات سألنى عن شئ بعد أن عرفنى بأن أسمه «هارون» قائلا :

-السلام عليكم ...يا صاح!

فإبتسمت قائلا

-و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته...يا صاح!

-أن ذميل لك فى الجماعة!

قلت له ضاحكا.

-أكيد ....اعلم ذلك!

-جملة غبية منى عفوا أكيد تعلم أننى ذميلك فى نفس الجامعة!

-لا عليك..أهلا وسهلا!

«هارون» وبدأ أن يسألنى فى خجل وتردد بما يدور بداخله، برغم من أنه لا يعرف عنى أى شئ!

-أهلا وسهلا...لا أعلم لماذا أريد التحدث معك فأنا قلما أتحدث مع أحد ولا أحب أن يكون لى أصدقاء ولكن لا أعلم لماذا أريد التحدث معك وأن أسألك عن أشياء قد تخيفك منى ومن أفكارى حينما تسمعها ...أنا أحب الوحدة!

أنا وقد شعرت بسرور حينما قال ذلك ولكن شعرت بالاستغراب من أنه يفصح عن نفسه بسهولة ولا يخشى الكلام مع من يجهله

-سبحان الله ...و أنا أيضا أحب الوحدة ولا أحب أن يكون لى صديقا وأفكارى تخيف الناس أيضا!

-أسف ..لكن كيف؟!

-سأقول لك لكن أرجو ألا تفهمنى خطأ!

هارون يرد على فى دهشة متسرعا وفى ترقب لما سوف أقوله.

-تفضل أريد أن أعرف!

-بإختصار...حينما أجلس مع ملحد يقول لى أنت متدين متشدد ورجعى، وحينما أجلس مع متدين متشدد يقول أننى ملحد وكافر، هكذا مع كل

البشر والتيارات كل واحد منهم يرمينى بتهمة لمجرد، أنى متسع الفكر وكثير التساؤلات، أتحير لا شك فهذا طبيعى وشئ محمود ومذكور حتى فى القرأن»و الذين يتحيرون ويقولون ربنا ما خلقت هذا بباطل»، و لكن لا فرق فى هذا الزمن ما بين عالم وجاهل، كل واحد يريد أن يتجاهل ما يعلمه غيره والعكس وعن عمد أحيانا ولا أحد يفهمنى!.

رأيت على وجه «هارون» علامات الدهشة ثم يقول ضاحكا

-لذلك يجب أن نكون أصدقاء ..نحن غير مفهومون!

فضحكت أنا ايضا!

-حقا..غير مفهومون!

-لقد وصلنا فرصة سعيدة يجب أن نكون على إتصال دائما.

-من المؤكد ...يا صاح!

-أراك غدا يا صاح ..السلام عليكم

-و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

و ظللنا نتقابل سويا ونخرج ونتكلم فى العلم والدين والفلسفة ، وحقا»رب أخ لم تلده لك أمك»، و مع ذلك ظل كل واحد منا محب للعزلة والوحدة، حتى ولو كنا متشابهان، فنحن نشبه بعض حقا فى كثير من صفات ولكنه كان يتميز بخفة الدم أو كما يقولون بالعامية «ابن بلد أو ابن نكتة» وفى يوم من الأيام أتفقنا على الخروج إلى قلعة «محمد على» ولنصلى هناك العصر وكان ذلك فى شهر أغسطس «أعنى أن الطقس شديد الحرارة»! بعد أن كلمنى»هارون» على الهاتف قائلا

-السلام عليكم يا صاح!

-وعليكم السلام ..يا هارون!

- هل أنت مشغول الأن؟!

-لا..هل تريد شئ؟!

- أعلم أنى إذا قلت لك لنخرج الأن سوف تقول على معتوه!

-درجة الحرارة اليوم تزيد عن ٣٨ درجة..و لكن لا يهم!
-إذا لنذهب إلى القلعة ونلتقط بعض الصور لمسجد»محمد على».. ونصلى العصر هناك ..أتفقنا؟!
أنا وبالرغم أنى تعجبت من أن «هارون»يريد الخروج فى ذلك الطقس السئ، الا أنى قلت له
-أتفقنا!
أثناء السير فى القلعة، وقد نسى «هارون» صلاة الظهر، قال لى «هارون».
-أنا ذاهب لأصلى صلاة الظهر لأننى لم أصليها وسأتى مسرعا لك مرة أخرى!
وكان الجو حقا سئ فقلت ل»هارون»،
- أنا سأحتسى كوب من عصير القصب!
ثم طلب منى «هارون»، واحد قصب له قائلا
-و أنا أريد أيضا!
-حسنا!
و مع ذلك الطقس السئ، كنت أشعر بالضيق أنذاك من فلسفة البشر والأحكام الباطلة على كل إنسان مختلف فكريا أو مختلف معهم فى أى شئ وغرور كثير من الذين فقدوا البصيرة لما توهموا أنهم وصلوا لشئ بفضل مجهودهم وليس بتمكين من الله، وحين أحاول الأخذ بالأسباب ولكن مازال الباب مغلق أمامى، فأتبع الحكمة وأصبر فى صمت، وأيضا أعانى من أختلاط المفاهيم عند كثير من البشر وعندى أنا شخصيا كحكمة»الأخذ بالأسباب وقلة النصيب وأنتظار فتح الباب والنصر والخلاص من تلك العبثية»و أشياء من ذاك القبيل، المهم، تأخر «هارون» كثيرا فى المسجد وكان الجو وقد أشتد حرارة وكتمة فذهبت داخل المسجد لأصلى العصر وهربا من الحر، فلم أجد «هارون» وبدء الإمام صلاة العصر، ثم أديناها، ثم حاولت أن أعاود الإتصال ب»هارون» على الهاتف المحمول فكان خارج النطاق .
هاتف -»الرقم الذى طلبته غير متاح حاول الاتصال فى وقت أخر».

ثم أغلقت هاتفى أنا أيضا، لأننى شعرت بالنعاس فى ذلك الطقس، وأيضا من صداع مؤلم نتيجة لكثرة التفكير والهم، فنمت فى ركن من أركان مسجد «محمد على» لوجود رياح عطرة فيه.!

ثم أستيقظت فرأيتنى فى الثلج فى جو شديد البرودة!، وأرتدى ثياب شتوية أشبه بملابس الأمراء والمحاربين فى عصر من العصور الأسطورية، وأنفى كان متجمد وشديد الأحمرار رأيته «كما لو أننى أرى أنف شخص أخر»، و تتساقط الثلوج من كل حد وصوب كالرماح، أشعر بلسعة سقيع حينما ترتطم مكعبات الثلج «التى تشبه مكعبات السكر» بوجهى وتتجمد أطرافى، لا أرى شئ من حولى سوى بياض الثلج، ثم أنظر فجاة إلى اليسار «بعد أن ورد فى ذهنى ظهور «هارون» على يسارى بملابس صيفية خفيفة فى ذلك السقيع» !..فأرى «هارون» يجرى بنفس المنظر الذى ورد فى ذهنى قبل قدومه ويقول لى..» مع العلم بأنه هو الذى أختفى فى الحقيقة»!.

-أين أنت يا صاح؟!

شكا بداخلى فى عقلى الباطن «بأن أمه مرضت فجأة»!... ويقينا بلسانى أجيب عليه.

-ذهبت لأصلى الظهر ثم جاء هاتف لى بعد أن قضيتها، قيل فيه أن أمى مريضة وتريد أشعة على الصدر شكا فى شئ!.

الخوف والرعب يملأ وجه «هارون»، »على وجهه يقينا بأن أمه هى التى مرضت»، وبلسانه يواسينى، وبالرغم من علامات الحزن التى بدت على وجهه قال لى.

-وعكة وستمر إن شاء الله...لا عليك..أتعرف لماذا أنا سعيد.؟!..

فحينما قال هارون أنه»سعيد» بدى فى ذهنى «الحزن الذى على وجهه مفهوم السعادة»! فقلت له تلقائيا.

-لماذا؟!

-لأن أخيرا قد تحقق حلمى بزيارة قلعة «محمد على» و» جبل المقطم «فى

«باريس»! .
ثم شعرت أنه إذا نظرت حولى سأجد فعلا ما يقول لأنه فى ذلك الوقت كنت بكامل اليقين أن «محمدعلى وجبل المقطم فى باريس»!، ثم نظرت أمامى لأرى قلعة»محمد على» و«جبل المقطم « بالفعل كما ورد فى نفسى بين الغيوم البيضاء، و برج»بيزا المائل «!..بجانب قلعة «محمد على « وخلفهم «جبل المقطم»!.
- وأنا سعيد جدا أيضا برؤية»برج إيفل»و «جبل المقطم»!...هيا لكى نلحق صلاة العصر فى المسجد الذى بداخل «برج إيفل»
ثم دخلنا لنصلى فى المسجد الذى يوجد بداخل»برج بيزا» بباريس، ثم دخلنا برج «بيزا» شكلا ولكنه برج «إيفل» أسما ولكن بداخل»بيزا» مسجد»محمد على» بدى وظهر فى باطنه من خطوتين لى بدون مقدمات، و فجأة أختفى هارون وأصبحت واقف وحدى فى مسجد «محمد على»أنظر من النافذة فأجد رجل ليس بخالى»حكيم» أسمر وعجوز وشديد النحافة لكن بشوش، سنه يزيد عن مائة سنة ويلبس ملابس باهتة اللون «أشبه بملابس العرب فى الجاهلية حينما تتعفر بغبار الصحراء» ولكنه روحا»خالى حكيم» جالس أمام محيط ويمسك بيده عصاه الخشبية ذات المقبض الحديدى، أراه من نافذة»مسجد محمد على»، لأقترب منه بلهفة ثم يتغير شكلى فى ذلك الوقت لأبدو أصغر سنا قليلا، و بملابسى الكلاسيكية التى أعتدت وأن ألبسها فى واقع «الحياة الدنيا».
-أفتقدت كثيرا يا خالى»حكيم»!
يتبدل الزمان والمكان فجأة عادا روح «خالى حكيم» فى جسد ذلك «الرجل العجوز»، رأيتنى فى غابة على جزيرة فى وسط مياه جالسا مع خالى»حكيم»!و رأيت فى يده فاكهة بلون أشبه بالفيروزى ولكنه ليس بفيروزى ثم رأيت تلك الغابة ممتلئة بتلك الفاكهة كل شئ فى الغابة بأسم تلك الفاكهة العجيبة الذى أكلت منها ثم شعرت بنكهتها وكانت ريحها وأنتعاشها فى أنفى كالنعناع

ولكن ليس نعناع، طعمها ليس حلو كالتفاح وليس بلاذع كالليمون ولكن طعمها غريب وشكلها أغرب فهى أشبه بالتفاح ولكن أيضا شبيهة بالمانجو، وبكل ثقة قلت لخالى»حكيم».

-أنا أعشق فاكهة»الفانتاريم» وعصير» الفانتاريم» ومياه «الفانتاريم»

كنت على يقين فى ذلك الوقت بأن»الفانتاريم» شئ أو مفهوم مسلم به، تنظر»روح خالى حكيم» فى «جسد الرجل العجوز» مبتسمة

- وأنا أيضا!...أعشق «الفانتاريم»

-متى قام الامبراطور «فانتاريم» بتشيد تلك الغابات وقصور «الفانتاريم»؟!

أثناء شرح «الخال حكيم» للإجابة يظهر فجأة ويختفى شخص ضخم الجثة يرتدى عباءة باللون الفيروزى فالأبيض ووجهه مغطى ولا يظهر منه إلا عيناه تخرج منهما أشعة أشبه ب»أشعة فوق البنفسجية»، يجلس على صخرة فى المياه التى هى أمامنا، و ورد فى نفسى فى أن ذلك الشخص هو»الأمبراطور فانتاريم»

-قبل حضارة «ذو القرنين» كما تعلم أنت طبعا «الأسكندر»بن «فيليب» وقبل أن يبنى السور، سور الصين العظيم على» يأجوج ومأجوج «!

و كالعادة وبكل ثقة..!

-أنا أعلم أن الأمبراطور «فانتاريم» قام بمساعدة «يأجوج ومأجوج» فى بناء حضارات»الفانتاريم» ومن ثم بعد تشيد حضارات الفانتاريم، قام «يأجوج ومأجوج» بقتل الامبراطور «فانتاريم» ٧ سبتمبر ٢٧٠٠ هجريا!.. الموافق الجمعة من ذو الحجة٢١٤٢ ميلادى   !.

-ثم بعد ذلك بنى السد على»يأجوج ومأجوج» ثم ماتوا جميعا، ولم يتبقى منهم إلا هذا أخر واحد من قوم «ياجوج وماجوج» !

ثم نظرت أمامى لأجد مخلوق يمارس السباحة فى المحيط الهندى!. بالقرب من غابات «الفانتاريم» يشبه البشر لكن خلقته دميمة إلى حد كبير وذلك المخلوق الذى هو اخر واحد من قوم «يأجوج ومأجوج» لا استطيع أن أحدد

obeikan.com

سوى دمامته وقصر قامته وأذنه الكبيرتان، ثم نظرت إلى خالى «حكيم» مرة أخرى ، ليروى لى قصة «يأجوج ومأجوج»كاملة!ثم تحول ذلك الرجل «خالى حكيم روحا»، إلى خالى «حكيم «روحا وجسدا، و ارتسمت إبتسامة على وجهى انذاك، لإيمانى الكامل أن ذلك الشخص أصبح «خالى حكيم» روحا وجسدا، ولكن ظل محتفظ بملابس ذلك الرجل «الصحروية العتيقة».

ثم أنتهى الحلم إلى ذلك الحد لأجد نفسى مستيقظ مرة أخرى فى المسجد «محمد على» لأجد نفسى متعرقا وعلى وجهى عفرة الطقس ذلك الطقس الحار وكل شئ قد محى من ذاكرتى»أنذاك»!.. إلا شيئان شكل فاكهة» الفانتاريم» ولونها وطعمها وإيمانى وتلقائيتى الشديدة فى معرفة تلك الفاكهة التى لا وجود لها فى حقيقة «الحياة الدنيا»!...ثم أقول بيقين الفترة «الساقطة» أو فترة «اللا وعى» ما بين العلم والحلم!

-»الفانتاريم» !...ما هو الفانتاريم؟!

و الشئ الأخر التاريخ العجيب الذى قتل فيه الامبراطور»فانتاريم» ٧ سبتمبر ٢٧٠٠ هجريا الموافق الجمعة وذو الحجة ٢١٤٢ ميلادى ! ..ذلك الشخص «فانتاريم «الذى لا يوجد فى الأساس، هو وغاباته وفاكهته، و ذلك التاريخ الغريب المنافى للأمر الواقع بكل المقاييس، ما حملنى على أن أعود إلى منزلى، وكنت لا أتذكر»هارون «صديقى اصلا، ثم عودت إلى منزلى وجلست على مكتبى وفتحت حاسوبى لأدخل ذلك التاريخ العجيب ولكن بالميلادى أو الواقعى»٧ سبتمبر ٢٧٠٠ ميلادى»

لأجده يوافق «الجمعة من ذى الحجة ٢١٤٢ هجريا «، حينما قمت بإستخدام برنامج لتحويل التواريخ، ما جعلنى أصاب بالأندهاش وأنا فى غاية الحيرة!ثم وضعت يدى على مقدمة رأسى.

-ماهذا!...ما معنى ذلك؟!

وخلال جلوسى على كرسى مكتبى فى منزلى رن جرس هاتفى إذا هو ب»هارون»، فأسمعه ولكننى ليس معه.

-أسف ..يا صاح على مغادرتى فجأة المكان!
ثم أرد عليه وأنا شبه مغيب عن الوعى لا أعرف ماذا أقول؟!.
-أرجو أن تكون والدتك بصحة جيدة الأن وتكون وعكة صحية وتمر، إن شاء الله!
لم أنتظر الرد فقط قلت له مرة ثانية
-و الأشعة المقطعية التى أخذت لها على الصدر؟!
يرد «هارون» وفى صوته الذهول
-ماذا ؟!..كيف عرفت أن أمى تعبت فجأة؟؟!...كيف عرفت بالأشعة على الصدر التى اخذت لها؟
ردت عليه فإرتباك، لأن فى تلك اللحظة بدأت أن أعود إلى الوعى
-ماذا؟!...لا...لا عليك
-حقا..كيف عرفت لا أحد يعلم سوى أنا فقط فكيف عرفت؟!
و لأتجاوز ذلك السؤال وتلك الصدمة من أن ولدته تعبت فجأة كما رأيت فى الحلم قلت له.
-يجوز أنك قلت لى أنها مريضة من قبل ذلك اليوم!...فاستنتجت أنها تعبت مرة أخرى!
-يجوز!..و لكنها أول مرة ...!
-لا عليك!...فلننسى الأمر!..سلام الأن
«هارون» وفى صوته شك من أنه قال لى شئ عن مرض والدته
-سلام سأعاود الأتصال بك مرة أخرى
-حسنا!
ثم انتهت المكالمة وأنا فى غاية الذهول من تلك الأمور، التاريخ الوهمى الذى لا يوافق التاريخ فى الواقع، و مرض والدة «هارون»صديقى ما جعلنى أشعر بصداع رهيب مرة أخرى من كثرة التفكير فى مثل تلك الأشياء الغامضة، و أخذت أنظر وأحدق فى مصباح كهربائى أمامى، ليغلب النعاس مرة أخرى

على وأضع رأسى على المكتب فأنام، و ليبدأ الحلم مرة أخرى من حيث أنتهى وكأن لم يحدث شئ فى الفترة مابين هذا الحلم والجزء الأخر منه، وأنا جالس مع الخال حكيم فى «غابات الفانتاريم» ليكمل لى قصة «ياجوج وماجوج»ولكن وجدت «الخال الحكيم» يجاوبنى عن شئ فى نفسى أخر لا أعلمه مع العلم أننى كما قلت أنى وقد تعبت من فهم فلسفة الأخرين وتعارضها مع فلسفتى!و فجأة وبدون مقدمات إذا ب»خالى حكيم» أمامى يقول لى بإبتسامة تملئها جدية!

-تعلم ما الفرق ما بين «فرعون»و «ذو القرنين»؟!

أنا وفى دهشة وأنتظار للإجابة!

-لا...لا أعلم!

أثناء ما كان «الخال حكيم»يحكى لى كنت أرى الإجابة متجسدة أمامى ك»البانوراما» أو مشهد «ثلاثى الابعاد»بل أكثر فكأنى أرى أمامى فرعون بشخصه، لأسمع صوت الخال»حكيم» و«فرعون «فى أن واحد وأراهم فى نفس الوقت، لأرى مؤامرة «فرعون»من البداية للنهايةَ وأرى شخص ملثم غامض يعطى «فرعون»كأس ليشربه و«الكأس كان مسموم»!و لكن لم يشربه فرعون، الغريبة أننى شعرت بأرتياح لذلك الملثم وشعرت أنه طيب وليس بالخبيث لكنه ورد فى ذهنى أنه شخص غير «موسى» وهو فعلا لم يكن سيدنا»موسى» !.المهم

-فرعون الطاغية ولد وفى فمه معلقة ذهب لم يتعب فى شئ !استخف بقومه ظن أنه إله وهو يعلم فى قرارة نفسه أنه ليس بإله...ولكن خلق فى كبد!

-ماذا؟ّ!...خلق فى كبد!...فرعون

ثم سكت الخال»حكيم» وأصبحنا فجأة فى قصر جبار كله تماثيل ومسلات فرعونية وخدم وحاشية وناس تسفق لملك حينما رأيته علمت بلا سؤال انه فرعون الطاغية، أنه رجل اصلع ليس بالطويل لكن يلبس تاج من ذهب فاخر ومرصع بأحجار كبيرة وكان تاج طويل فوق رأسه ليعطيه هيبة وكان

يمسك عصى ذهبية يلتف عليها ثعبان رأسه «أفعى» ، ثم بدأ»فرعون» ينظر لى وللخال»حكيم» أثناء ذلك الحفل، ينظر ل»خال حكيم» بخبث وبحدة وشر ويكاد الجمر يسقط من عينه أو يكاد يكون الشيطان متجسد فيه! ثم يقول ويصرخ بصوت أجش له صدى فى أرجاء ذلك القصر!

-ملكى...لن يذهب ...يجب أن أقضى على موسى انا ربكم الأعلى!...كل شئ ملكى!...الأنهار والزرع.....السموات والأرض، الأحرار والعبيد، كلهم عبيد لى.... أنا إله

ثم أرى رجل دميم، يضع حمره على وجهه كالنساء، ورد فى نفسى أنه «هامان»و أرى فرعون يرحب بقدومه ثم يأمره بأن يبنى الصرح وأرى السحرة يجمعون كيدهم من كل حد وصوب وعصيانهم تتحول لثعابين، وأرى عصى شريدة ترمى تتحول «لأفعى» رهيبة أكاد أشعر بأنها كقطار مارق من أمامى تلتقم الثعابين والأفاعى الأخرى، وورد فى نفسى أنها ل»موسى»، ثم أرى السحرة يقطعون ويصلبون، ثم أرى «فرعون»و البحر ينشق فى مشهد مهيب لولا أنى كنت بعيد للحظة لكنت معهم ثم يبتلعهم البحر، هو وجنوده يصرخون، لأجد فجأة نفسى بين أعمدة يونانية ضخمة وبيضاء. ترتمى عليها أشعة الشمس من بين الغمام لتعكس مشهد غاية فى العراقة، وقد أختفى «الخال حكيم»، ثم أرى قوم بائسون يتساءلون.

-أين «ذو القرنين»؟!

و كان من بين تلك الأعمدة اليونانية، قصر أبيض على نفس الطراز اليونانى، فينزل من بين تلك الأعمدة على سلم، شاب يركب على فرسه، يبدو عليه الوسامة، رأيت الناس ينادونه «ذو القرنين»، ولكنه لا يلبس شئ فوق رأسه، وكان يشبه نفسه فى التماثيل التى صنعت له فى الواقع، ثم قال للقوم بلطف.

-العبد لله بين أيديكم ..

أرى القوم يشكون له من» يأجوج وماجوج» من فسادهم وطغيانهم، ويطلبون منه العون.

-ماذا أنت بفاعل؟..فى قوم أفسدوا حياتنا!
ثم رد عليهم «ذو القرنين» بكل حكمة وتواضع وإيمان بالله
- ما مكننى فيه الله واستخلفنى فى ملكه سأبنى بينكم وبينهم ردما منيع ولكن سأعدل بينهم من طغى سيعذب ومن أحسن فينجو من عذابى
فأرى علمات السعادة أرتسمت على أولئك البائسون، ثم أرى جنود «ذو القرنين» وأولئك القوم يردمون على «ياجوج وماجوج» وكانوا أشبه وبخلقة المخلوق الذى رأيته فى الحلم الماضى ورأيتهم وهم يصرخون وخالى «حكيم» يقف ويردم مع الرادمون ثم يأتى إلى مسرعا وقد أختفى المشهد بأكمله من ورائه قائلا.
- عرفت الفرق....يا شارد؟!...كلاهما «فرعون وذى القرنين» ولدوا والله قد مكن لهم فى الأرض، »فرعون»طغى واستكبر وأوهم قومه أنه إله، لكن»ذو القرنين» علم من مكنه فى الارض هو» الله «!..و ان الله قدر له أن يكون غنيا ولكن كان يعلم انه فى النهاية عبد، «فرعون» بذل جهد فى ان يسقط رسالة موسى وكان يشعر بالكبد خوفا من زوال ملكه، »ذو القرنين»بذل جهد فى تسخير ما أعطاه الله لخدمة الضعفاء، كلاهما ولدوا أغنياء، و كلاهما بذلوا مجهود، وكلاهما وصلوا إلى مكانة متقاربة، الفرق الجوهرى هو أن»فرعون»أنكر فضل الله وطغى ولكن» ذو القرنين» شكر الله على فضله وعلم انه مستخدم من قبل الله.
أرتسمت على وجهى علامات السعادة والراحة، ثم قلت
- يا الله
ثم وجدت نفسى مع الخال»حكيم»فقط سويا من جديد، و أجد الخال حكيم يمسك بيده مرة أخرى فاكهة «الفانتاريم»و يلتقم منها ثم يقول وهو يشير بأصبعه السبابة الذى فى يده الممسكة بثمرة» الفانتاريم».
-هذا بالنسبة للتمكين فى الأرض!
ثم أرى نفسى فجأة فى صحراء وحدى، و فى وسط تلك الصحراء وغبار الصحراء،

قصر غريب من الذهب الخالص وكنت أول مرة أرى مثل ذلك الشئ، ورد فى نفسى. أن هذا القصر المصنوع من ذهب كان ركام من الرمال ثم حوله «قارون» إلى ذهب.، لأرى من بعد ورود ذلك الأمر فى نفسى، عيناى تأتى بما وراء الجدران «قارون»مرتديا لباس من ذهب ويجلس على عرش من ذهب ويغرف بيده الرمال ويسحقها فيحولها لذهب وأرى الجهلاء يتهامسون كل واحد منهم فى اذن الأخر يحسدونه على ما هو فيه، فحاشيتة يحملون كل شئ من ذهب ويقدمونه له، الجدران والأعمدة والأصنام كل شئ من الذهب الخالص، ثم يسكت كل من فى المكان ويتكلم»قارون» بغرور فيقول.

-أنظروا ..إنى مفضل....اوتيت قوة تسخير الرمال إلى ذهب عن علم!......نعم عن علم، فأنا عندى هذا العلم لذلك أستحق أن أكون هذا.

ثم يتساقط بعض الحصى من فوق الجمع فيضطر الجميع إلى النظر إلى أعلى وأولهم «قارون»، ليتحول كل ما صنع من ذهب إلى رمال ويفر الجميع، ويبقى «قارون» وحيدا محاط بأعاصير من الرمال تفتك وتسحق «قارون»و فجأة كل المشهد أصبح رمال فقط تنهار على رأس «قارون» ليتساوى بها وأجد الخال «حكيم» جالس على قمة تلك الرمال ينفض يده من التراب قائلا.

-أنظر إلى «قارون» يا «شارد» ...قارون أصبح وملكه شئ واحد من»تراب» ثم لأرى من حولى فى وسط ذلك التراب ممالك لم أرى مثلها قط لتنصب عند ملك واحد، تلك الممالك .تأتى محمولة فى السماء بواسطة الجن والبشر وخارجتا من الأرض كالنبات، أرى طيور تتكلم بلغة مفهومة، ارى حضارة تبنى امامى، أرى رياح عطرة تأتى مكان الرياح الغبرة!، حتى النمل يتكلم و.الناس تتكلم عن صاحب ذلك الملك الجبار وعلى سماع جنوده من الجن لكلامه يقولون عجبا له، كل ما زاد ملكه، تضرع لربه وشكره،

-أن ذلك الرجل» يقول ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك»!

obeikan.com

الخال حكيم يجلس على صخره وعلى كتفه «هدهد» أزرق على رأسه تاج وذلك الهدهد كان حجمه ضخم نسبيا ويأخد ثانى قطمة من فاكهة «الفانتاريم» ثم يشاور بأصبعه السبابة على الهدد الجالس فوق كتفه قائلا

-أظن يا شارد علمت من هو؟

ثم رددت بسرعة

-من أول لحظة علمت أن ذلك الملك ل»سليمان»

الخال حكيم مداعبا الهدهد الأزرق

-وذلك الهدهد؟!

-بالطبع وهذا الهدهد

ثم تعجبت من الهدهد حينما تكلم قائلا!

-سلام عليكم!

ثم طار الهدهد من على كتف الخال»حكيم»، ثم رجع «الخال حكيم» بجدية قائلا

-بغض النظر عن كون المقارنة بين نبى وبشر عادى، فهم فى النهاية بشر امام الله، فقد وهب الله الأثنين نعمة التسخير والملك، »قارون»كعادة اى طاغية زعم انه اتى ذلك على علم منه ومعرفة، وهو صاحب الفضل على نفسه اما «سليمان»كان يعلم انها هبة من عند الله فى اى وقت إذا اراد الله سلبها منه لسلبها...و ذلك بالنسبة للملك أو «الغنى والثراء»

-صحيح ..كل شئ هبة من الله

ثم سكت قليلا «الخال حكيم» لأراه بشكله كما كنت أراه فى واقع»الحياة الدنيا» «روحه وجسده وجلبابه «على كرسية الهزاز الخشبى، ثم ليقول لى مبتسما!

-حتى العلم !

-حتى العلم...كيف؟

«الخال حكيم» يبتسم ، لم يجاوب على أخر سؤال لى، فقط يرفع بيده تلك

الثمرة، ثمرة» الفانتاريم»، وقد عادت إلى صورتها الأولى كما لو أنه لم يلتقم منها شئ، ثم يعتصرها بيده فى كوب لا أعرف من أين اتى به! ويقول بإبتسامة ذات معاني كثيرة وغاية فى الذكاء، ابتسامة لم أرى مثلها فى دنيانا.

-ما «الفانتاريم»؟ !

و انتهى الحلم عند ذلك السؤال فاستيقظت مبتسما، تكاد تكون هى نفس ابتسامة الخال «حكيم»، لا يوجد فى الواقع فاكهة أصلا مثل تلك، ليوجد معنى لأسم «فانتاريم» فى اى مصطلح، أو فى الوجود الذى أحياه، ولكن فى تلك المرة وجدت نفسى أطلق مفهوم، تعريف لتلك الثمرة «الفانتاريم»، و جدت نفسى كما لو أننى أعلمها فأقول لنفسى

-»الفانتاريم» هى»أعجوبة الزمان والمكان»!

لا أعرف لماذا ورد بداخل عقلى ذلك التعريف وتلك الكلمات، ولكن عودت نفسى على انه ليس لكل شئ تعريف، كثيرون يطلقوا مفاهيم على الأشياء وهى ليست بمفهومها الحقيقى ولكن ان لم يجد لها الإنسان تعريف قد يصاب بالجنون، هل يجود أكبر من أعجوبة الدنيا والوجود، و التمسك الغير مفهوم بها، فكان قبل الفجر بكثير حينما أستيقظت من النوم فى وقت كان الليل فى شدة سواده والنجوم تسطع فى السماء كالماس، دائما وابدا كنت ابحث عن اشخاص مثلى حتى ولو أنا لست بحاجة لهم، وحتى ولو كنت قد امنت بمقولة خال «حكيم» فى الغربة والوحدة فى تلك الدنيا، فقط من الممكن لشعورى بأن هناك بشر لزالوا موجدون يعرفون حقيقة زوال المفاهيم التى وضعوها، حينما أستيقظت وجدت جريدة مفتوحة بالصدفة على مقال لفت نظرى اسمه «أعجوبة الشكر»، لطبيب نفسى وفيلسوف ومهتم بالبحث فى الأمور الدينية والعلمية والفلسفية يدعى دكتور»سليمان حكيم» وبجانب أسمه صورة له الغريبة أنى شعرت أننى رأيت الدكتور «سليمان» مسبقا ولكن لا أعرف متى؟!ثم أخذت الجريدة لقراءة تلك المقالة وكانت الصاعقة، فبداية تلك المقالة «حتى العلم هبة من الله»!

-(«حتى العلم هبة من الله يأتيه لمن يحب ولمن لم يحب، يأتيه لكافر أو مؤمن، كما قال نبينا الكريم»ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الإيمان إلا لمن احب»، و بالمقارنة بين شخصية سيدنا»الخضر» و«هامان» خادم فرعون، نجد ان «هامان» باستخدام علمه بنى صرح رغبة لطلب»فرعون» وأهلك هبة العلم فى خدمة الطاغية»فرعون «حينما قال له فرعون

-»يا هامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الأسباب، اسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وانى لأظنه كاذبا».

ظن «فرعون»أن بمقدوره بناء صرح ليطلع فيه على إله موسى»الله»، ولا عجب فى ذلك!فى تشابه قلوب الجهلاء، فان أحد «رواد الفضاء»قال :أنى حينما صعدت إلى السماء لم أجد الله»، سبحان الله، بدلا من أن يبتغى»هامان» بعلمه وجه الله، ابتغى به عرض تلك الدنيا.

اما «الخضر»زهد فى الدنيا برغم ان علمه كان وقد تعدى كل العلوم، وقد قال الله تعالى عنه فى القران الكريم فى سورة الكهف»فوجدا عبدا من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علم»، حينما ظن موسى عليه السلام أنه أكثر أهل الأرض علم فأراه الله ذلك العبد من عباده وقد أعطاه علم أكثر منه، فلم يستطيع موسى تحمل الصبر على ما يجهله من علم أكثر قد احاط به الله عبدا أخر، وبرغم ذلك العلم لم يفكر حتى «الخضر» فى ان يأخذ أجر تشيد البناء الذى كان تحته كنز، و لكنه أعطى مال لمن خرق لهم السفينة «لهم هم»ولم يبتغى عرض الدنيا، وذلك هو الفرق الجوهرى!مابين «هامان» و« الخضر»، فأتى الله «الخضر»خير أكثر من «هامان» تعلموا ما هو أيها السادة الأفاضل، »الحكمة»، نعم قال الله تعالى» ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا»، نختتم بتلك الأية سلسلة موضوعتنا ومقارنتنا، ما بين «فرعون وذو القرنين» ثم «سليمان وقارون» وأخيرا»هامان والخضر»!

يالا الصاعقة!..وقد أزدت حيرة وشعرت بغموض أكثر، فالخال»حكيم»

حينما سألته عن «أنه حتى العلم هبة تؤتى للعاصى وللمؤمن» لم يكمل وقد أكملها الدكتور «سليمان حكيم» وإلى هنا وقد أنهى «سليمان حكيم «مقالته، ولكن مع تلك «الحيرة» التى كانت هى المسيطرة على، ألا أننى أخذت أفكر كثيرا فيما بين تلك الكلمات «كلمات خالى حكيم والدكتور سليمان» لأنه من المستحيل أن تكون عبثا، لأجد ما بين الحلم والعلم حكمة لتأكد على شئ داخلى، أنه مهما توهم الإنسان أنه هو الذى وصل إلى شئ بفضل مجهوده وأنه هو من صنع نجاحاته وبفضل أخذه بالأسباب أو لأنه «مختار»!، ألا أن هذا بإرادة الله فى الأول والأخر ولأنه من الممكن أن يكون من الذين ينطبق عليه قول الله «يمدهم فى طغيانهم» أو «نمتعهم قليلا» فى الحياة الدنيا. بسبب تكبرهم مثل «فرعون وهامان وقارون»، والعكس هناك من يأخذ بالأسباب لكن تتأخر ردة فعل نتيجة أتخاذه لتلك الأسباب التى لا معنى لها الا بإرادة الله هى الأخرى، وعلى الإنسان فى ذلك الوقت أن يتحلى بالصمت، ليرى الحكمة بعيناه ويرى كيف أن ردة الفعل «جديرة بأن تنتظر»، و غالبا ما يكون الخلاص حينها أشبه «بالنصر»! وصول «العاصى» والطائع» فى كلت الحالات بأمر وتمكين من الله، ولكن «علم أحدها بأن من قدر له الوصول هو الله» هذا هو الفارق «الجوهرى»!..الا وعلمت فيما بعد أن «الدكتور «سليمان»له مواضيع أكثر عمق وفلسفة أكثر من ذلك، فكان يضع بجانب كل أسبوع فى مواضيعه البريد اللالكترونى الخاص به مما جعلنى، أقوم بمراسلته عليه، و حينما شعرت بانه من الأشخاص الذين أبحث عنهم فى تلك الأكذوبة الكبيرة «الدنيا»!و بعد أكثر من مرة أراسل فيها دكتور»سليمان حكيم» ووجدت أنه إنسان غزير المعرفة والحكمة والزهد، وكلامه فى الصميم قررت أن أقابله، حتى ولو فى عيادته فقمت بإرسال رسالة عبر البريد الالكترونى لطلب المقابلة وكان محتوى تلك الرسالة:

-السلام عليكم ..دكتور»سليمان»، هل من الممكن السماح لى أن أقابلك؟، اريد التحدث معك أكثر، حتى ولو فى عيادتك!أو أى مكان وفى أى وقت

تحدده

ثم جاء الرد على رسلتى من الدكتور»سليمان» بعد يومين.

- بالطبع يا بنى، ولكن أنا إلى الأن لا أعلم أسمك؟!

-عفوا سيدى، أسمى»شارد»!

- لم أسمع من قبل احد بهذا الأسم، أسم جميل، دال على شخصية صاحبه، حسنا يا «شارد» يا بنى، أنا موجود فى عيادتى كل يوم من الساعة الخامسة إلى الساعة العاشرة مساءا عادا الخميس والجمعة، تشرفنى بقدومك فى اى وقت أردته، فى أنتظارك.

شعرت أنذاك بالسرور فردت على دكتور «سليمان» قائلا

-شكرا يا دكتور....أنا فى غاية السرور

و قام دكتور»سليمان حكيم «باعطائى عنوان عيادته ورقم التليفون الخاص به، ولكن لم أهتم بأن أكلمه، أردت أن اذهب فذهبت فعلا إلى عيادته فى المعادى، عيادة الدكتور فى أحدى العمارت القديمة فى المعادى ذات الأسقف والسلالم العالية، دخلت عيادته، و برغم من أنه دكتور مشهور عند مريديه!..الا ان عيادته بسيطة الحال، حتى الأريكة والكراسى فى منتهى العتاقة، حينما دخلت أستقبلتنى مساعدة الدكتور «سليمان»، أمرأة ما بين الأربعون والخمس والأربعون سنة تدعى» نرجس».

- السلام عليكم

أبتسمت بوقار ثم قالت

-و عليكم السلام ..أهلا وسهلا، كشف ام أستشارة؟!

أنا أرتبكت ووجهى أحمر خوفا من أن تظن أنى بى شئ «مريض نفسيا»! لأنها عيادة نفسية، وأنا فقط أريد أن أسأل الدكتور عن بعض الأشياء الفلسفية والعلمية فى الأمور التى كنا نتكلم فيها عبر البريد الالكترونى، و لكن أردت الكلام وجها لوجه معه، فرددت عليها مرتبكا.

- لا..لا..تلك أول مرة ..لكن، لا يهم فقط قولى للدكتور سليمان «شارد»!

نظرت بغرابة من ردت فعلى وتعجبت من أسمى!

- شارد اسم عجيب ..و لكن شارد من؟!

-شارد، فقط قولى له «شارد» فهو يعلم!

ثم نظرت «نرجس» إلى بضع من الأشخاص الذين ينتظرون أدوارهم، ثم نظرت لى مرة أخرى وقالت

-حسنا، أنتظرنى سوف ابلغ الدكتور سليمان!

-حسنا

دخلت السيدة « نرجس» إلى الدكتور «سليمان»، فأخذت فى ذلك الوقت أنظر إلى اللوحات الفنية القديمة المعلقة واللوحات العلمية والأيات القرأنية ورسومات»للدراويش»، ومن ضمن تلك اللوحات لوحة مكتوب عليها»تيليبورشن» وهى عبارة عن رسمة لجسد شخص ينتقل من عصر إلى عصر، لفتت نظرى تلك الصورة ثم أتت «نرجس» من الداخل وعلى وجهها ابتسامة وكأنها ترحب بى من جديد .

-تفضل!..تفضل!

-كم ثمن الكشف أو الأستشارة!

خفضت من صوتها ثم قالت همسا!

-الدكتور «سليمان» حينما سمع أسمك، قال لى «شارد»، أسمحى له بالدخول، ولا تأخذى منه أى مال!

ثم قلت للسيدة «نرجس»

-شكرا!

- العفو تفضل الدكتور فى انتظارك!

فتحت لى السيدة»نرجس» الباب ثم دخلت للدكتور، حينما دخلت، لفت نظرى لوحة أخرى لجسد أخر ينتقل من مكان إلى مكان فى عصر أخر ومكتوب على اللوحة عنوان بنفس أسم اللوحة التى هى خارج غرفة الدكتور»سليمان» «تيليبورشن»، الدكتور «سليمان «يشبه كثيرا خالى حتى فى

obeikan.com

طريقته، وحتى ملامحه تشبهه ولكنه نحيف بعض الشئ عن خالى»حكيم»، جلست على الكرسى الذى كان أمام مكتبه، ولكن أزداد شعورى بأننى قد رأيته من قبل ! بعد أن أستقبلنى بترحاب شديد قائلا

-أهلا، أهلا ..يا شارد يا بنى تفضل

ثم ردت عليه خجالا من كرمه

- شكرا لحضرتك يا دكتور مرتين ؟!

ثم بخفة دم الدكتور سليمان وهو يضحك.

-..مرتين فقط!.. على ماذا؟

- المرة الأولى على سعة صدرك وتحمل أسألتى على بريدك الالكترونى، وقبول مقابلتى، ثانيا لمقابلتى بدون أجر، شكرا لأفضالك

ثم يرد الدكتور «سليمان» بابتسامة بها تواضع

- أنت مثل وفى عمر أبنى»شريف» المهاجر لإنجلترا، الحوار معك ممتع يا بنى، تفضل بالكلام اسألنى ما شأت

أنا وفى فرحة عارمة وخجل من كرم الدكتور سليمان وسعة صدره.

-شكرا لكرم حضرتك جدا..جدا، لفتت نظرى تلك اللوحة وفى الخارج لوحة معلقة عند حضرتك قديمة تشبهها ومكتوب علي كليهما» تيليبورشن»؟!

ثم أرجع الدكتور «سليمان» رأسه إلى الوراء ليسندها على الكرسى، ثم أخذ نفس عميق، وأغمض عيناه!

obeikan.com

الفصل الرابع
«زرافة داروين والمنطقة الحرة»

أنظر فى صمت وترقب إلى الدكتور»سليمان» لمعرفة الإجابة، و أثناء أنتظارى على رده عاد ليجلس مستقيما ثم فتح عيناه قائلا!

- حلم الفلاسفة والعلماء أجمعين عبر كل الأزمان !

أنا وعلى وجهى علمات الأستفهام والتعحب!

- ماهو ذلك الحلم..؟!

- «التيليبورشن :Teleportation» هى ظاهرة أو فكرة أو نظرية عبور أى جسد مادى من نقطة إلى نقطة أخرى ليس عبر حايز مادى ولكن فى الفراغ، وعلى أرض الواقع لا يوجد ذلك الشئ، و لكن يحدث دائما ومع أى شخص فى الأحلام، و أحيانا تصل إلى درجة الحاح الشخص فى معرفة شيئا ما! فيعبر جسده لأى مكان شاء بل الزمان أيضا فيعرف مكان وجود ذلك الشئ، وحينما أتكلم معك الأن، حضر فى ذهنى مثال لصديق لى أسمه «عمران» كان يبحث عن ساعته المفقودة التى أعطتها ولدته له كتذكار منها قبل وافتها ، وكان يبكى مثل الأطفال حينها، فأغمض عيناه وهو حزين على فقدان الساعة التى كان يحبها بر غم من أنها وقعت من يده أكثر من مرة

obeikan.com

وفى كل مرة تكسر وكان يعاود ترميمها، فوجد نفسه يطير فوق المبانى عابرا للحواجز التى بدت له كالستائرالشفافة الخفيفة ليجد ساعته المفقودة، ثم أستيقظ ليجدها فى نفس المكان الذى رأها فيها، بل حتى تصل إلى درجة أن ترى حدث تاريخى وقد انتهى، تراه من جديد، ك»مؤامرة فرعون على موسى» !.

أستوقفت دكتور»سليمان»، حينما ذكر مشاهد «مؤامرة فرعون» قائلا

-ماذا تقول ....لماذا ذكرت «مؤامرة فرعون على موسى بالتحديد»؟!

ثم نظر لى»الدكتور سليمان» من تحت النظارة التى كان يرتديها، رافعا حاجبيه بدهاء قائلا.

- لأنك أردت أن تعبر بى متجاهلا الحواجز لترينى، ما رأيته أنت!

أنا وفى غاية الذهول!

- أنا....أريك ماذا؟؟!

«الدكتور سليمان» بإبتسامة فيها دهاء وحكمة العارف !..قال

-مؤامرة فرعون على موسى ..يا شارد!

ثم المفاجأة التى صدمتنى حينما قال ذلك، وعرفته فجأة، ثم قلت له

- أنت ...أنت...مستحيل...أنت هو «الرجل الغامض الملثم» الذى كان يحمل بيده ..الكأس المسموم لفرعون!

«دكتور سيلمان» بدهاء مقاطعا كلامى

- ورفض فرعون شرب الكأس المسموم!...كنت شاهد على ذلك الحلم يا شارد..لأنك أردت ذلك!

قلت له فى ذهول

-لكن كيف أردتك؟!

-لا أعلم !الكن يجوز أنها كانت كمحاولة الاتصال بشخص ما بالخطأ، فتجد نفسك أمام الشخص الصحيح!

و بعد فترة من الذهول والصمت التى أنتبتنى قلت.

-لذلك شعرت بالراحة الغير مبررة لك!... وعلمت أنك شئ خارج تلك الواقعة أصلا!.... وأنك مجرد عابر سبيل فيها!.

الدكتور «سليمان» يرد على كلامى مسرعا

- نعم

ثم ذهب كل شئ كان فى بالى أخر أريد أن أسأل فيه، لأن كل ما كان يخيم على فى هذا الوقت تلك الأحداث المترابطة الغامضة والحكمة منها، فقلت للدكتور «سليمان» بإبتسامة سريعة على وجهى الذى يملأه الذهول!

-شكرا يا دكتور «سليمان»، أرى حضرتك فى وقت لاحق !..

الدكتور «سليمان» لم يلح على عندما طلبت الأنصراف لأنه يعلم أننى مذهول من المفاجأة ولأن عنده زائرين فى الخارج قائلا

- سعدت للقائك يا «شارد» أراك لاحقا!..

ثم أستوقفنى الدكتور»سليمان» بسؤال مفاجئ وغريب!

-هل تحب الأماكن ذات الأشجار العملاقة والكثيفة ؟؟!....يا شارد

أنا تعجبت للسؤال ولكن ردت عليه قائلا

- نعم، ولكن لما؟!

رد على الدكتور» سليمان «مغمض عيناه وهو يشعر بإرتياح

- أنا أعشق الأشجار الكثيفة وكلما ازدحم المكان بالأشجار العالية شعرت بالراحة، وأختبئ بينهما كل إنسان البدائى!....سلام يا بنى!

أنا متعجبا مما يقول، ولكن ردت عليه قائلا

-سلام!

ثم خرجت من الغرفة مسرعا، لم أشعر بوجود السيدة «نرجس» .ثم خرجت من العيادة مبطئا ومفكرا فى كل شئ وأنا فى نزولى على سلالم العمارة القديمة التى يوجد فيها عيادة «دكتور سليمان»، شعرت أن السلالم دوارة كالتى فى الأبراج المستديرة ، شعرت أنها كثيرة ولا تنتهى حتى ظننت أن تلك السلالم فى نفسى أنا» كالتى أراها أو يراها أى إنسان فى الحلم لا نهاية لها إلا بخلاص

الحلم!»، أخذت أفكر فى الدكتور « سليمان» ووجه الرجل الملثم حينما استعرضت مشاهد ذلك الحلم من جديد، مع العلم أن ذلك الحلم من فترة كبيرة فكان فى سنة تخرجى من الجامعة وحينما تذكرت تفاصيل الحلم كنت وقد تخرجت، أخذت أتذكر الحلم ولكن تلك المرة أعرف وجه الرجل الملثم، الذى سقط من ذاكرتى تماما، كما لو أن وجهه ظهر فجأة، ثم أختفى بسرعة، يلا العجب لماذا تزداد الأمور غموض وتعقيدا! والذى زاد الأمر حيرة ذلك السؤال الفجائى وكلام الدكتور»سليمان» عن أرتياحه مابين الأشجار العالية...و لكن لبد من حكمة لهذا السؤال فأنا لا أدع شئ يمر أمامى عبثا إلا وفكرت فيه وفى حكمته!

و كما ذكرت أن فى تلك الفترة كنت تخرجت من الجامعة ولكن لم أعمل بشهادتى ولكن بهوايتى ألا وهى «التصوير الفوتوغرافى» !كنت أحب الذهاب إلى الأماكن الأثرية والطبيعية لألتقاط الصور، مما كان يجعلنى أشعر بالأستمتاع لأمتهانى مهنة تتناسب مع هوايتى ولكن ظل حب الفلسفة فى نفسى، أثناء قيامى بالتقاط الصور فى «قلعة محمد على» ولكن تلك المرة فى الشتاء، رن جرس هاتفى المحمول، إذا هو «هارون»صديقى وكنت لا أكلمه منذ فترة لأنشغال كل واحد منا بظروفه، يصرخ «هارون»فى الهاتف ضاحكا قائلا.

-أيها النذل..أين أنت؟؟....نسيت صديقك ورفيق الفكر والجامعة!

أنا ضاحكا

-يا صاح...أنا فى قلعة «محمد على»...أين أنت .؟

ثم رد «هارون» على مسرعا

-بالقرب منك ...لا تتحرك!

-حسنا

ثم أخذت التقط بعد الصور لحين قدوم «هارون»، ثم جاء هارون مصطحبا معه، صديق أخر له تعرف عليه فى عمله، ولكنه عكس شخصية «هارون»

وبالتالى شخصيتى، برغم إننى لا أحب ان أخذ أحد بالظاهر ألا أنه تقريبا، لم يوجد شئ بغيض إلا وفعله، بل يحاول تبرير أفعاله تلك بشتى الطرق!و الأغرب من ذلك يتسرع فى أتهام الأخرين بما ليس فيهم ليغطى على ما يفعله من ذنوب، ومن عادتى أننى أحب أن يعش كل إنسان بحرية طالما أنه لا يتعدى على حرية الأخر وأؤمن بمبدأ»أنت حر إن لم تضر»لكن لا أؤمن بالفجر!و لعلمى أن كل إنسان منا مخطئ، وحتى وإن رأيت ما لا يعجبنى فى الشخص الذى أمامى أتركه طالما لم يضرنى تحت مبدأ الأية الكريمة»و نفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» والأية الأخرى التى يقول فيها تعالى» كفى بالإنسان على نفسه بصيرا ولو ألقى معاذيره»، المهم أن صديق «هارون» الأخر وأسمه «فادى» حينما جاء وبعد التعارف وبعد أن أخذ يجاهر بذ نوبه عنانا التى لا يجد فيها شئ، بل أخذ يتكلم عنها بفخر ويتحاكى وأنا لا أريد التدخل فى شؤنه الا أننى كنت أمنعها بقلبى، ثم جلسنا فى مكان بالقرب من القلعة .ثم قال»فادى» بسخرية وتهكم على «هارون».

-سأشرب ...سيجارة!...أنا أعلم ..يا «هارون» أنك طفل، أمك تمنعك من شرب السجائر ..و تشم رائحة فمك كل ليلة...حينما تكبر وتصبح رجلا سوف تطلبها منى تلقائى...و أنت ...يا شارد مثله؟؟!

ثم رد عليه «هارون « بدلا منى عليه وبعنف، بعد أن رأى علامات الغضب على وجهى.

-دع «شارد» فى حاله!

ثم أشعل «فادى» السيجارة وأخذ منها نفس، ثم قال بسخرية ل»هارون»

-حقا، يبدو عليه طفل هو الأخر مثلك يا»هرروو»!

ثم نظر إلى مرة أخرى «هارون» خوفا على غضبى من «فادى» وسكت خجلا منى، حينما رأى علامات الغضب تشتد على وجهى، حتى أصبح وجهى فى قمة الأحمرار وبرزت العروق فى جبهتى، ثم بعد لحظة صمت وبعد أن

هدأت، ردت عليه بأتزان وحدة وكنت غاية فى الجدية معه.

- التدخين حرام!

ثم يرد»فادى» بأستهذاء وثقة بالنفس، بعد أن تنفس من السيجارة مرة أخرى!

- الكل يحفظ فقط ولا يعقل!، هل كانت السجائر والمخدرات ...الخ، موجودة على أيام الرسول ..أجب يا»شرروو» أين لسانك.

و بعد أن قال ما قاله «فادى»، نظر «هارون» لى وقد ازداد خجله من أفعال» فادى»، ثم قلت له بحدة وثقة فى النفس.

-صحيح....كثير من الناس لا يعقلون لذلك، قال تعالى»الذين يتبعون الرسول الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين أمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون».

ثم نظر إلى «هارون» منبهرا من إجاباتى، وشعر «فادى» للحظة بأنه أحرج ثم أراد أن يجادل بإرتباك قليلا والحدة فى نظراته قائلا.

- وما علاقة تلك الأية كلها، بالتدخين، هل يوجد فيها كلام عن تحريم التدخين!

أنا وقد ازدادت ثقتى في الله وفيما أقول!

-عجيب ...أنت قلت أن كثير من الناس لايعقلون !...إذا أنت من الذين يعقلون!...»يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث»....ماذا تعنى!

قال لى «فادى»و صوته يبدو عليه الأنزعاج وضعف الحجة

-أنت تستهزأ بى، ، ما علاقة تلك الأية بالتدخين، أو العقل، قل لى يا فيلسوف عصرك!

«هارون» ينظر مترقبا لردت فعل كل واحد منا أتجاه الأخر، ثم لم أكترث لإهانة»فادى» لى لأننى شعرت بالقوة حينها قائلا!

-العفو العبد لله لا يهين!..حينما حرم الله الخمر أوضح الله ذلك، لأن»ضررها أكثر من نفعها»...نسبية الضرر فيها أعلى من النفع...الله عز وجل لا يحرم شيئا عبثا أو لإذلال البشر..و الخمر مثال من عدة أمثلة كثيرة للتحريم..»يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث» ...فى صلب كلامنا عن التدخين...و التعقل والتدبر ...فإذا حولنا تلك الأية إلى نظرية علمية وتعقلنها وطبقنها على التدخين نجد أن، »الحلال=الطيب والحرام=خبيث»، طبق ذلك على التدخين ، حاول أن تجد لى منفعة واحدة للتدخين غير الوهم بأنها تزيدك رجولة وتخفف التوتر برغم أنها تزيد منه، سوف أقول لك عزيزى»فادى»، التدخين كم تصرف من المال فى تلك الورقة التى تحرق بها نفسك فهى «مضيعة للمال»؟، تعيش فى وهم سحب الدخان ونفخه فهى»توهمك»، تأذى الأخرين صحيا ويبتعدوا عنك لرأحتك فهى»خسارة اجتماعية»، و الأمراض من ضيق التنفس إلى سرطان الرئى»خسارة صحية......ماذا عندك!

«فادى» لا ينطق من ردة فعلى الغير متوقعة حينما ظن أنى أردد كلام العامة، ووهم نفسه أنه يعقل ليغطى ويحيط نفسه بهالة من القوة حينما يتحدى الأخر بدون مبرر، أما «هارون» علامات السعادة والذهول على وجهه ثم قال «هارون»

-صحيح ...ما هذا ..الله يبارك فى عقلك!

أنا ردا على تعليق «هارون»

- شكرا يا صاح.

ثم يكسر «فادى «صمته بكلمتان حقد قائلا

- فخور بنفسك!

-لا... تركت فى حالك ولفسادك ولكن أنت إنسان ضعيف، تشعر بالنقص من داخلك، تشعر بقلة»رجولة» فى قرارة نفسك فتتخذ رموز وتفعل أشياء وهمية ظنا منك أنها تعزز رجولتك، لا تستطيع أن تجاهد نفسك ورغاباتها، تتوهم أن دفاعك عن نفسك يمنحك ويعطيك القوة لكنه فى الحقيقة يقضى

على ضميرك لأنك تقلب الحقائق، تقوم بثورة ولكنها» ثورة المجون»، أن لم تستطع أن تكف عن المعصية أصمت أكرم لك بدلا من أن تلهى نفسك فى عيوب الناس هربا من عيوبك، كلنا نخطئ ليس من الذكاء أن تبرر لنفسك أشياء تعلم أنها خطأ، حين تدافع عن نفسك طوال الوقت، سوف تكون مرتاح البال وسعيد لو اعترفت بأنك بشر غير معصوم، سوف ترتاح!

يزداد الصمت ونظرات التحدى ما بينى وبين «فادى»، لتنتهى بأن يطفئ «فادى» سيجارته وبقوله

- سأغادر من هنا!....سلام

ثم لم أرد أنا بل رد«هارون» عليه

-أجلس أشرب شاى !...سأقول لك شئ أخر...أجلس أشرب شاى بحليب!.... أقول لك «سلام»!

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

«هارون» ينظر لى فى خجل ثم يقول.

-أسف يا»شارد»....و لكن من الأفضل أنه غادر

-لا عليك

ثم غادرت أنا و«هارون» من المكان لنمشى قليلا سويا وأثناء المشى «هارون» يخبط على كتفى فجأة!...و السعادة والفخر يملئان وجهه،

-شارد..أنا فخور بك يا بنى..هههههه ..لقد تطورت كثير وتغيرت أكثر مما كنا سويا فى الجامعة!...أنا مذهول مما سمعته منك يا صاح، حقا لقد تغيرت كثيرا!

ثم أبتسمت وأنا أنظر إليه، وأشعر بأنه حقا أخى، ولكن أخى للحظات، فأنا دائما ما أشعر فى نفسى بأننى وحيد فى ذلك الأختبار، ثم بعدها قال «هارون «ثانيتا !

- تعلم يا صاح أكثر شئ غريب يجمعنا، ونتكلم عنه دائما؟

فى ترقب أقول له

-ما هو؟
ثم يقول «هارون» بإبتسامة تملئها العجب والخبث
-نحن حينما نتكلم، نتكلم عن أكثر موضوعين متناقضين، »العلم والدين والفلسفة» و«نتغزل فى بنات حواء»!
أنا ضاحكا وفى خجل
-صحيح، و لكن حينما نتكلم ونتغزل فيهن نتغزل بكل أحترام.
يرد «هارون» مسرعا وضاحكا
- صحيح..صحيح!..و نغض البصر!
ثم ضحكنا نحن الأثنين على ما نقول، و عاد كل واحد بعد ذلك إلى حاله، !قليلا ما أضحك على شئ!و لكن المهم أشعر أننى أتغير وأتقدم، لتتبلور فلسفتى عن الحياة أكثر وازداد فهما لتعقيدتها على الأقل على حد زعمى، فانها ليست بتلك البساطة، أو بمعنى أصح لها «شفرات»!وقد مر أكثر من ثلاثة سنين على وفاة خالى»حكيم»، فذهبت لأزور قبره، فجلست على الأرض أمام قبره، وظهرى يستند على قبر أخر، قبر أخر مواجه لقبر خالى، لأحكى له عما كنت أريد أن أحكيه له، ولكن وقد أتى أجل الخال»حكيم» قبل سماعه وأنا ومازلت أشعر انه لم يموت بل حى!قرأت له الفاتحة ثم بدأت فى أن أسرد كل ما يدور فى خاطرى بصوت خافت، ومن تلك الأشياء التى لطالما عتبت نفسى عليها أننى لم أزوره حتى مات، وأننى تعلمت حكمة بموته أن اللحظة لها أثر «تفرق» فى أتخاذ القرار وأنه لن ينتظر القطار لقدومك فسوف يرحل من دونك! شعرة ما بين الصبر والتردد، الصبر حكمة إنما التردد تشتت بين الأوهام، لم أعد أستغرب مما أسمعه عن نعيم أو عذاب يقع على الميت فى تلك الرقعة الصغيرة وهو رفات ولا من ما سوف يقع عليه ويشعر به، ولما لا أصدق، و كل يوم وكل ليلة أرى أهوال وعجائب، و أسافر فى أى مكان وأى زمان وأرى الموتى أحياء أمامى وأرى المعانى تتبدل والمفاهيم تتجسد فى أشياء مادية وجسدى على سريرى لا يفعل شئ سوى التقلب فى

مكانه ...، وأثناء سردى لحديثى مع خالى، غفوت!
فرأيت نفسى أمام قبر خالى ولكن ذلك القبر فى مكان أخر أجهله، ويكاد يكون قبره فى مكان «غير أرضى»، مكان لا أرى فيه سماء ولا أرض، مكان ملئ بالضباب، والغريب أنه وسط ذلك الضباب أشجار عالية غريبة وقديمة وورود مزروعة وسط ذلك الضباب، لأرى خالى قادم وسط الضباب، بصورته قبل أن أولد أنا وهو شاب، متعجبا جلوسى أمام قبره قائلا.
- لم تجلس يا «شارد» أمام قبرى ..هل أنا مت؟!
أنا وبداخلى يقين أنه لم يمت حقا قلت له
- نعم ..أنت مت!
فقال لى»الخال حكيم» بإستنكار !
- هل تؤمن أننى مت، أنظر أمامك إلى قبرى؟
ثم نظرت ولم أجد قبر «خالى حكيم»، لم أرى سوى رفاته، وورد فى نفسى أن «جسده هو تلك الرفات»، و لكن رفاته فى الدنيا، وأن ما أمامى هو، لكنه فى جسد «غير أرضى»، ثم أبتسمت فرحا بأنه لم يمت! قائلا :
- ما هى «المنطقة الحرة» ؟
ثم نظر إلى متبسما، عيناه تتسع، بنظرة أقرب إلى»نظرة النعيم»، قائلا فى عتاب
- لماذا لم تذهب فى ميعادك؟!
أنا وقد ورد فى نفسى ميعاد ولبد أن أخذه للقاء دكتور»سليمان» الذى وقد نسيته فعلا، وقد حدث أن خالى «حكيم» وضع يده على كتف»دكتور سليمان» الذى لا أعلم، متى وأين وجد؟!
- سأذهب لدكتور»سليمان»!
ثم أختفى كل شئ بيقظتى مع العلم، أننى ظننت أنى نمت، ولكن ما وجدته أننى نائم وعيناى مفتوحتان، ولكن لا أعلم كيف تعطلوا وكيف لم أبصر بهما؟! وكيف أبصرت بخالى والدكتور»سليمان؟! ثم قمت منظفا

بنطالى من التراب، وذهبت راكضا لدكتور «سليمان»، أخذت أركض سلمه القديم العالى، كما لو أننى أصعد إلى برج فى السماء، وحينما صعدت ووجدت السيدة»نرجس»، جالسة وحدها ولا أجد زوار فقالت لى متعجبة من مظهرى، وكنت متعرق ووجهى أحمر من الركض وصعود السلم!

السيدة - أهلا وسهلا ...أستاذ شارد!...تريد كوب من الماء؟!

أنهج وأقول لها مسرعا

-السلام عليكم ...نعم أريد كوب من الماء..!

السيدة «نرجس «ذهبت لتحضر لى كوب من المياه فى عجالة

السيدة -تفضل يا بنى!

أثناء شربى للماء، و شعورى بالإرتياح من الركض وصعود السلم، قالت لى السيدة «نرجس»

السيدة -دكتور سليمان ...أعتذر!

أنا فى عجب، لأن ذلك اليوم كان الأربعاء، و هو يوم ليس فيه عطلة حتى له!

- لما..أين أجده؟!

ردت السيدة «نرجس» فى خجل

السيدة -لا أعرف يا شارد يا بنى...لم يقل الدكتور لى شيئا!

-حسنا...شكرا على كوب الماء !

السيدة نرجس لزالت متعجبة منى فسألتنى!

السيدة -تحب أن أبلغه بشئ!

-لا شكرا..السلام عليكم

السيدة - وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ثم خرجت من عيادته، وأثناء نزولى على السلالم العجيبة، التى وللمرة الثانية أو الثالثة أشعر بأنها سلالم كالمتاهة تتحرك فى عقلى الباطن فى تلك العمارة القديمة، حاولت الأتصال به على هاتفه الشخصى وأنا واقف أمام نافذة ضخمة امام السلم يمر من خلالها ضوء الشمس ولكن خافت كالشموع، لم

يرد «دكتور سليمان»، ثم فى المرة الثانية الرقم غير متاح، عودت الأتصال به لفترة ولكن دائما لا يرد على هاتفه أو أسمع تلك الرسالة!

- الرقم المطلوب غير موجود بالخدمة من فضلك عاود الأتصال فى وقت لاحق!

أزدت حيرة، لأنه لا يذهب عيادته، ظننت أنه قد حدث له مكروه ، ذهبت للنزول لألتقاط بعض «الصور الفوتوغرافية»، فى أحد الأماكن الأثارية، أثناء ألتقاطى لصورة سمعت أثنان يتكلمون، فقال واحد منهم لأخر، على أن هناك مكان ملئ بالأشجار العالية والقديمة من مائات السنين .

ذلك الشخص يقول للأخر: تعلم ..أنا «OTree»...أكثر مكان ملئ بالأشجار القديمة والعالية وهو مكان مهجور ومن النادر ذهاب أحد إليه، والأسم أختصار لكلمة«Old tree»..و الأشجار هناك أيضا كثيفة جدا..انه أكثر مكان فى هذا البلد..به أشجار!

حينما سمعت عن ذلك المكان وعلمت من أولئك الرجلين عن مكان تلك الغابة بالتحديد، ذهبت إليه مسرعا لأن الدكتور «سليمان» قال لى فى مقابلتنا أنه يحب الأماكن ذات الأشجار الكثيفة والعالية ويحب الإختباء فيهم كالإنسان البدائى، وكنت على يقين أنذاك من وجود حكمة لكلام دكتور«سليمان» وحبه للأشجار، وزاد التأكد فى نفسى حينما سمعت تحاور الرجلان عن تلك الغابة، وبدى فى نفسى التأكد أنه هو المكان الذى سأجده فيه فالحكمة لا تعرف فى لحظة، رأيت مشاهد سريعة سردها ذهنى كالصحف المتطايرة عن ذلك المكان قبل الذهاب إليه أشبه بظاهرة ال«Deja Vu»، إنه حقا مكان غريب به أشجار عالية وقديمة وكثيفة وورود، ولكن ذلك المكان يوجد به ضباب، أنه يشبه ما رأيته فى الحلم لكن ليس هو، لأن المكان الذى رأيته فى الحلم كان «غير أرضى»، ولكننى شعرت أنه ظاهرا من باطن المكان الحقيقى الذى رأيته فى الغفلة ولكن العجيب أن ذلك المكان برغم جماله إلا أنه بائس ومهجور ولا يوجد فيه أحدا، و قد صدقت حكمة

obeikan.com

الله وأتباعى لحدسى، رأيت الدكتور»سليمان» يجلس مختبئا تحت شجرة وحيدا فى حالة مذرية، ذهبت إليه مسرعا قائلا:

- دكتور «سليمان» ...ما بك؟؟

يرد على وينظر إلى فى بؤس قائلا!

- شارد بنى!..بنى!...علمت أنك سوف تأتى

أنا وبدى على التأثر من الحالة التى أرى فيها دكتور «سليمان» قائلا.

- ما بك؟

لم ينظر أتجاهى بل نظر أمامه لأننى كنت بجنابه أجلس على إحدى ركبتى، ثم قال وعيناه تتعفف عن أزراف الدموع.

- لقد مات أبنى المهاجر!

أنا فى حالة ذهول وحزن شديد بداخلى وجمود من خارجى

-الله يرحمه، ويدخله فسيح جناته!..ولكن كيف حدث ذلك؟!

الدكتور سليمان وهو متعجب وفى تأثر شديد يقول

- فجأة ..بدون مقدمات وأى شئ! لا يوجد سبب، فقط فجأة!..نقلته إلى المستشفى، كنت معه لقد سفرت إلى زيارته فى إنجلترا، الأطباء لم يجدو عنده شئ، وضعوه على الأجهزة، قمة العذاب أنه تعب فجأة ومات فجأة، كنت أنظر له وهو على الأجهزة أملا أن ينهض، كنت متأرجحا ما بين الأمل واليأس، العلم ....لعنة العلم!...يظن البشر بأنهم وصلوا إلى كل شئ، هم يعجزوا عن أداء أى شئ، لم يجدوا نفعا لما فعلوه، سوى تعلقى بأمل عودته...نحن البشر أكذوبة ووهم!.....نحاول أن نخدع أنفسنا بوجود أسباب لكل شئ، ولا نخلق الأسباب إلا بعد فوات الأوان، لو لم يجدوا البشر سبب لأى شئ لنقادوا إلى الجنون..هذه هى الحقيقة، نحاول أن نضع لكل شئ منطق، و ننتظر دائما أن يأتى السبب لنا وعلى قدرعقولنا، لا أن نفكر خارج عقولنا للحظة، نعترف بالعجز، السخرية من بشر يؤمنوا بأن كل شئ خارج منطقة الأسباب له سبب فى حدوثه ونسوا أن الله معطل الأسباب!.

كنت أشعر أنذاك أن الدكتور «سليمان» يخاطب شئ فى نفسى، لأن هذا ما بدأت وأن أؤمن به فى نفسى، فقلت بصوت منخفض له يملأه البؤس والحيرة.

-صحيح

ثم قال لى الدكتور» سليمان» فى عذاب وهو يتذكر مشاهد أبنه»شريف» الأخيرة !

- إنه كان وبرغم أنه فى بلاد غريبة ألا أنه كان يحافظ على صلاته وصيامه، برغم أنه كان يصوم فى رمضان وحيدا لا يوجد أحد لخدمته وحينما سافرت، سافرت لأقضى معه شهر رمضان ذلك العام..و حينما نقل إلى المستشفى وكنت معه، وفى وسط تعبه، قال الأطباء لى أنه توفى» أكلينيكيا»، تجمدت أطرافى وشعرت أننى لا استطيع الوقوف وكل شئ يدور من حولى لدقائق، ثم أفيق بعدها وظننت أنه سينهض وأنه لن يموت ولكن بصوت خافت جدا يملأه التعب قال لى أبنى»شريف»!

- أنى أرى...أنى أرى !

- شعرت بالفرح حينها وظننت أنه شفيا، فقلت له ماذا ترى يا «شريف»، ترانى أنا أمامك يا بنى، أنا اسمعك.، هل ترانى، ولكن قال لى «شريف» وهو فى غاية التعب، عاجز عن أكمال كلامه

-أرى نفسى ...أرى نفسى...فى نفق ...نفق ...... طويل جدا وفى أخره..منطقة ...منطقة من!

- من ماذا يا شريف؟ّ!..من ماذا يا بنى؟!

-من النور!

-توقفت الأجهزة عنه وهذا أخر ما سمعته منه، و لتخطفنى صدمة موته المفاجئ!

حينما سمعت تلك كلمات «منطقة النور»من «دكتور سليمان»، أزدادت دهشتى، جسور الحكمة تتلاقى كخيوط العنكبوت، كنت متردد عن سؤالى لذلك المفهوم «منطقة النور» وهو فى مثل هذه الحالة، ولكن أبتسم الدكتور

«سليمان» أبتسامة بائسة فجاة، ثم قال.

- الحمد لله ..الحمد لله..

- الحمدلله على كل شئ

الدكتور «سليمان» يواصل الإبتسامة ثم يبدلها بصمت وتجهم، ثم يكسر الصمت قائلا

-أنت ذكى يا شارد..كنت أعلم أنك سوف تستنتج اننى فى هذا المكان، لعلمك بحبى للأشجار والشعور بالراحة بينها، و أعلم انك الأن تريد أن تسألنى ما هى «منطقة النور»!

أنا وفى دهشة!

-صحيح...كيف عرفت يا دكتور «سليمان»؟!

ثم يرد على بحكمته المعتادة والألغاز التى تعودت أن أسمعها منه، ومازال وجهه متجهم!

-لأننى أعلم كما تعلم أنت، أنك تريد السؤال عنها !تتذكر المفهوم أو الفلسفة التى سألتنى عنه مسبقا «Teleportation»!

جاوبته مترقبا، أن أعرف

- نعم!..اتذكر!

أثناء تجهم الدكتور»سليمان» أبتسم أبتسامة سخرية، ثم عاد مرة أخرى سريعا لتجهمه.

-فلسفة من الفلسفات العلمية، شئ له تبريرات هو الأخر، خارج منطقة الأسباب، يدعى»NDE:Near Death Experience تجربة قرب الموت»

ثم قلت للدكتور «سليمان» مقاطعا أياه فى تعجب.

- وماذا يعنى ذلك ؟!..هل يعود أحد من الموت!

-أسمع يا شارد ...ذلك المفهوم من وضعه بشر، فبالتالى هو علم بل نظرية بشرية فرضية، خاضعة للصواب والخطأ.و لكن كما قلت لك أن الإنسان يضع لكل شئ خارج عن الطبيعة أسباب لكى لا يصاب بالجنون، فحال الإنسان

obeikan.com

بعد الموت شئ غيبى، وتلك التجربة يراها فقط من أتى بمثل أشتباه فى سكتة قلبية، أى بمعنى أنه ميت «أكلينيكيا»لأن الوظائف الأخرى تعمل والأهم أن العقل يعمل، وبسبب أن العقل ليس به مشكلة ويعمل، أخضع الأطباء ذلك المفهوم بأنه نابع من العقل الباطن أى أن العقل لطالما هو يعمل، إذا ينتج أشياء ومشاهد ليأهل الشخص الميت «أكلينيكيا» للموت، بمعنى أصح أن مايراه الإنسان ويمر به أشبه بأضغاث أحلام فى «العقل الباطن» العقل» اللا وعى» لأن العقل يعمل وذلك فى الوسائط العلمية التى تقريبا لا تؤمن بالبعث، و يؤمنوا بأن السكتة الدماغية أو موت العقل، هو الموت الحقيقى لأنه لا رجعة فيه، و فى تلك التجربة يشاهد الناس أشياء جمعت ما بينهم بإختلاف عقائدهم وتوجهاتهم، مثلا النفق الذى فى أخره نور، أو منطقة النور الحرة»الضوء الباهر» الذى أخضعه العلماء لفكرة الإيمان بمعنى أن سطوع هذا النور يرتكز على مدى إيمان الشخص ويعد أيضا مكان لتلاقى الأرواح، أى أن يرى الإنسان نفسه خفيف شفاف متعلق بالسقف بعيدا عن جسده المرمى على الأرض، هى فرضيات، و لكن يرجع بعض المؤمنون أن النفق الذى فى أخره نور، هو عبارة عن ممر تلتقى فيه الأرواح فى نهايته او عند النور واما أن يرى الإنسان أستقباله بالعذاب أو بالترحاب، »ممر للبزخ» يأهل الإنسان فيه لمرحلة ما بعد البرزخ مسواه الأخير «الجنة أو النار»، ولكن فى الأول وفى الأخر هذا أستنتاج بشرى، مجرد أسباب لعدم الجنون، أقول لك هذا لأنه أحيانا ما تستغل تلك الفكرة»NDE«، لأهداف معينة!و لقد أعطى الدكتور «مصطفى محمود» تعبير أدق عن تلك التجربة بأنه»موت ظاهرى» لأن العقل بالفعل لم يمت فهو ليس بالحقيقى لأنه كما قلت أن مات العقل مات الإنسان، مما يجعلنى دائما افكر فى خطاب الله عز وجل فى القرآن دائما «للعقل» وعلى أن يتكل الإنسان على عقله، أختذال العقل فى العلم، هو قمة الظلم للعقل، لأن العقل عنده القدرة على أن يؤمن بالعلم وما وراءه»الغيب»، لا أحد يمسك ولن يمسك أحد دليل على حقيقة

obeikan.com

الروح، سيظل الإنسان يفترض ويظهر من بعده لينكر فرضيته وليقيم أخر فرضية أخرى ....الله أعلم!...لا تفهم من كلامى يا شارد بأن تغلق عقلك بل بالعكس يجب أن يكون عقلك متفتح ومتدبر دائما !...لكن لا تسلم لرأى بشر وأن الواقع هو تسليمه إلى من خلق البشر»ان تطع أكثرمن فى الأرض يضلوك عن ذكر الله»، فإن كل ما نراه ونصل إليه ليس ب»الحقيقة المطلقة»، قال تعالى»يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الأخرة هم غافلون»، الحقيقة المطلقة والروح لا يعلمها الا الله، »يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»، وسوف تتعلم وحدك أمام يا شارد، ان الله يمنح الكثير!...شارد...شارد...أين ذهب عقلك!

كنت حينما أسمع لكلام دكتور «سليمان» أشعر كما لو أننى فى عالم أخر، أرى ما يقوله متجسد أمامى

-لا..لاشئ...معك ...فقط سرحت فى حديثك..الأمر يبدوغريب

يرد على الدكتور» سليمان»

-حقا الأمر غريب وملئ بالتفاصيل، لكن مهما تجلت إليك حقيقة التفاصيل، فإنها ليست الحقيقة الكاملة.

-صحيح!

فرغنا من الحديث ثم قمت واقفا !ثم قال لى دكتور»سليمان» وهو يمد يده إلى يدى

-خذ بيدى يا «شارد» يا بنى لأقوم!

مدت له يدى لينهض، ثم قال لى «دكتور سليمان»

- يا شارد ...يا بنى ..تسمح لى أن أكون أباك الروحى على الأقل!

أنا وفى قمة سعدتى

- أكيد ...هذا فخر لى!

-شكرا يا بنى!

ثم قمنا بالمشى قليلا، و بعد ذلك ذهب كل واحد منا إلى حاله.

obeikan.com

أتسائل دائما، لما يشغل الإنسان نفسه بما لا يريحه، فى الوقت الذى فيه أنا أفعل ذلك، ولكن ليس للفوز بالدنيا، ولكن للهدف الأسما.

أتذكر دائما وأبدا صورة»الظرافة ذات العنق القصير»، لم تفارق لحظة مخيلتى تلك الظرافة وكنت دائما إلى حد الأن أحلم بأننى أجلس فى غابة كبيرة بها أشجار طويلة كالتى رأيتها فى»»Otree، و لكن أحيانا تلك الأشجار كانت ناطحة للسحاب، وتأتى ظرافة، عجيبة لم أرى مثلها إلا فى كتاب العلوم حينما كنت فى فترة الأبتدائى، ثم تنظر تلك الظرافة إلى أعلى فى محاولة للأكل من تلك الشجرة العالية أو الناطحة للسحاب، فتفشل، فتحاول مرة وأخرى، حتى أراها تقف برقبتها القصيرة تلك أمام الشجرة، لأرى عنقها يستطيل ويستطيل، حتى تعبر رأسها من السحاب، وتأتى الظرافات الأخريات فى محاولة لفعل ذلك، فتسحقهم تلك الظرافة وترفسهم بقداميها فيموتون، دائما ما أسمع صوت» النقشبندى» فى موشح» أيها الناس» يختلط ذلك الموشح مع موسيقى فيها غموض ولكن مدهشة على أذنى، وتظل تستطيل رقبتها وتستطيل الشجرة التى تأكل الظرافة من وراقها، حتى تختفى رأس الظرافة ورأس الشجرة وراء السحاب، لتحجب الرؤية عنى، الجدير بالذكر أن تلك الظرافة «ذات العنق القصير» لا أراها حقا كما ذكرت إلا مجرد رسمة فقط، رسمة فقط فى نظرية تسمى بال«The mutation الطفرة» فى جدال واقع ما بين «لاماركس» و«داروين»، أتذكر أن «لامركس»كان يقول أن الظرافة كانت فى الأصل ذات عنق قصير، ولكن لبقائها على قيد الحياة يجب أن تأكل من أوراق الشجر التى لا تستطيع أن تأكل منها إلا إذا مدت رقبتها إلى أعلى «فتستطيل»!ينتقضها»دارووين» بأن إذا حدث ذلك الأمر حقا فلن تطول أنسجة عنق الظرافة إلا قليلا، إنما وتحتاج إلى زمن طويل حتى تصبح الظرافة هكذا وفى الأجيال التى تاليها «لتكون منتخبة من قبل الطبيعة»! على أى حال ما هى إلا مجرد نظريات، صحت أو لم تصح فهى مجرد «ظاهر من الحياة الدنيا» لا تمت بشئ فى الغيب.

obeikan.com

فالعسل يأتى من النحل، واللبن من الأنعام والخمر من العنب، «و إن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لأيات لقوم يعقلون»و أيضا فى الأية ألأخرى « ثم كلى من كل الثمارات فأسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لأية لقوم يتفكرون»، و تلك حقائق علمية ولا يعلمها فقط العلماء بل لا يجهلها أى إنسان، و لكن ذلك هو تقدير العزيز الحكيم فى الدنيا أما فى الأخرة يقول الله عز وجل عن «العسل واللبن والخمر « نفس تلك الأشياء «مثل الجنة التى وعد الله المتقون أنهار من ماء غير أسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى»، بمعنى أخر أن تلك النعم موجودة ولكن بلا أسباب «نحل وأنعام وعنب» موجودة بلا حساب، و أتذكر أنه فى يوم من الأيام قص عليا «هارون» رؤية رأها وهو وجهه ملئ بالسعادة، تكاد عيناه تدمع من روعة المنظر فقلت له:

-ما بك يا»هارون»!...ماشاء الله أجد وجهك مبتسما ولكن فى أبتسامتك العجب!

فقال «هارون» وهو ينظر للسماء مبتسما!

- بالفعل يا صاح أنا سعيد جدا!...ذلك الوجود عجيب !

أنا ركزت وأضيقت عيناى ترقبا لمعرفة السبب ثم قلت له

- لما؟!

-رأيت شئ رائع وغاية فى الإبداع فى منام لى!

أنا أزداد تركيزى لما يقول ثم قلت له!

- خيرا!...يا «هارون»

«هارون « يستعرض مشاهد الحلم أمامى ويصف وصف دقيق، حتى شعرت أننى الذى أحلم قائلا!

obeikan.com

- رأيت نفسى فى مكان لا أعلم فيه أين السماء وأين الأرض أرى نفسى فى عالم مفرغ من كل شئ، ولكن يعجز لسانى عن وصفه من شدة جماله، سمعت ورأيت ما لم يخطر على بالى يوم، ورأيت أنهار من العسل الأبيض، الغير لزج، لا أعرف أين بداية ذلك النهر ولا أعرف نهايته، و رايت نهر من لبن يتقاطع معه، لا أرى نقطة لتلاقى النهران نهر العسل واللبن، الذى لم أرى مثلهما فى الحقيقة ولا فى لذتهما، وودت حينها لو لم أعد ثانيتا!..الحمد لله

قلت له فى سكرعقلى

-سبحان الله... سبحان الله!

-سبحان الله حقا!..تعلم يا صاح مالذى أتعجب منه!

- ماذا يا هارون؟؟

«هارون «و قد بدى أن تغير فيه شئ فى لهجته

-كيف تحدث لنا تلك الأشياء والأهوال، و حين حدوثها فى ذلك البعد أو ذلك العالم نكون على يقين بها، وحينما نفيق نستنكر حدوثها !

قلت ل»هارون» مبتسما

- حينما تصبح وحيدا بمفردك، تؤمن فى حدوث تلك الأشياء، وحينما تنغمس وسط الناس ووسط الأوهام ووسط الحواجز التى توضع من قبلهم، تنكر حدوث تلك الأشياء، ولا عجب أن سيدنا النبى «يأمر بتخصيص وقت لكل واحد منا للتدبر فى الكون وفى كل شئ»، حتى تحافظ وتتمسك بإيمانك بالغيب.و أيضا للإيمان ببواطن الأمور وليس فقط بظاهرها

- صحيح..

قلت ل»هارون» فى تعجب

-يا أخى أتعجب من بعض الناس الذين ينكرون الغيب والبعث ووجود الله!

-أكيد ولكن لماذا..يا «شارد»؟!

-لأن المؤمن بالغيب أذكى!

-لما؟!

- لأن الذى يكفر بالغيب لا يضع أى أحتمال غير لشئ واحد، فقط الشئ المادى الملموس الذى وصل إليه، فقط هذا ما يسلم له، ويعطى عقله لعبد مثله، بمعنى أن لو عالم أقر بوجود فكرة الإله، أقر مثله، ولو أنكر، أنكر مثله، فى حين أن ما توصل له العالم هو ليس كل شئ، وقد يصل إلى شئ أبعد وهو مؤمن بذلك، وهو من يقول أن العلم كل يوم فى جديد، فهو يؤمن بأن كلامه قد يكفر به من عالم أخر يثبت عكس نظريته، ويظل كافر بوجود إله، مرهون ما بين مخالب الطيور الجارحة بإشراكه والتسليم للعباد دون علم إله، الا وهو العلم الأحوط، و سبحان الله يحضرنى قوله تعالى»ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»، سبحان الله، اما المؤمن مرهون بالعلم الأحوط، علم الله، المشتق منه علم العبيد، فإذا سألت مؤمن، ماذا لو حدث أن فكرة إله أصبحت أسطورة، ولا يوجد بعث ولا جنة ولا نار؟، سيقول لك لم أخسر شئ، »أن وجد الله عبدته فأجازى على ذلك ، وأن لم يجد فلن أخسر»..قال سيدنا على بن ابى طالب كلام فى ما معنى ذلك الكلام ولكن لا اذكره الأن!

- صحيح..أن معك فى كل ما تقول!معك خصوصا أن تسلم نفسك لعبد قد تعلم أنه من الممكن أن يخطأ، وأن لا تسلم نفسك لله!....

-صحيح

ثم جاءت مكالمة هاتفية ل»هارون» فقال لى بعد أن أنهاها

-عفوا يا شارد!..سأضطر إلى أن أغادر الأن، عندى ميعاد مع الطبيب المعالج لأمى، و كانت أمى تستعجلنى

-لا عليك يا صاح ..و لكن طمنى

-سلام يا صديقى

-سلام يا صاح

و بعد أن أنتهت المقابلة ما بينى وبين «هارون»، أخذت أمشى بمفردى بالقرب من نهر بعد أن ألتقط بعد الصور، و أثناء التمشية وجدت رجل

عجوز فقير، يلتف بالكامل بعباءة قديمة، ويلبس على وجهه نظارة ذات عدسات سميكة، يبدو عليه بساطة الحال والتعفف والحكمة أيضا والزهد، يجلس على اريكة خشبية أمام النهر ممسك بيده كتاب يقرأه بعنوان « المؤامرة الحقيقة»، فجلست بجانبه على الأريكة الخشبية أمام النهر، ثم أنظر للنهر وتارة أخرى لذلك الرجل العجوز.ثم نظر فجأة لى ذلك «الرجل العجوز» أثناء قرأته للكتاب، وأبتسم لى قائلا!

-يا بنى تريد شيئا!

أنا وشعرت حينها بالخجل وحينما شعرت أننى متطفل قائلا!

- عفوا، لبد وأننى أزعجتك

و لكن بترحاب شديد من «الرجل العجوز» قال لى

-لا يا بنى بالعكس، ما أسمك؟!

-أسمى شارد

- أهلا وسهلا....يا شارد يا بنى؟!

-أهلا وسهلا

الرجل العجوز بعد أن لمح الفضول فى وجهى، لمعرفة عما يدور ذلك الكتاب وبعد ان نظر لى ثم للكتاب ليبتسم قائلا!

-» المؤامرة الحقيقية»!

أنا فى ترقب

-عما يدور موضوع الكتاب ؟!

ثم رد على الرجل العجوز بإجابة غير متوقعة!

-تخاريف!

ردت علية بإستفهام وتعجب من تلك الكلمة

-تخاريف لماذا؟!..و لماذا تقرأه إن كان «تخاريف»؟!

رد علي بإجابة أغرب مرة أخرى ولكن تلك المرة ضاحكا

- لأضحك ..يا بنى..لأضحك يا شارد...

أنا فى لحظة سكون أقول له

-خبرنى من فضلك

ثم وضع الرجل العجوز الكتاب بجانبة وأراح ظهره إلى الوراء ثم قال فى تجهم!

-لأن هذا الكتاب، صنع للضعفاء!.. نعم، صنع لهم، يتكلم عن المؤامرة ببلاهة! يضحك به على عقول الضعفاء والجهلاء، ويعطيهم مائة مبرر ومبرر، على المؤامرة، و أن الكل يتأمر عليهم لأنهم الأحسن دائما، ولذلك هم مضطهدون، وما يعطيهم مثل ذلك الكتاب إلا المزيد من الضعف والتخدير، يا بنى أنا لا أفهم فى كل شئ، انا إنسان فى الأول والأخر، جاهل!

أنا فى أستغراب وحيرة أناقشه قائلا

- اليس المؤامرة هى أن تجمع القوة الخبيثة شتاتها للفتك وأستعمار الضعفاء

الرجل العجوز فى منتهى الحكمة

- حتى ولو قوة خبيثة ما الذى تستخدمه لأستعمار الضعفاء، شتات قوتها كما قلت، الخبيثة ولكن مستترة، فمعانى ومسميات براقة!...و نبيلة.. ولكن ليست تلك هى..المشكلة! من حق أى إنسان أن يبقى، وليس بشتات القوة والعدد» كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة»!

-صحيح، ولكن اذا ماهى المؤامرة الحقيقة علمنى أيها الحكيم؟!

ثم سألنى الرجل العجوز سؤال

- هل عندك أخوات.. يا شارد؟!

-نعم، أخت؟

ثم رد على الرجل العجوز بإجابة لم أسمع بها من قبل تعريفا للمؤامرة وهو متجهم!

- هب أنك لك أكثر من أخ تمتلكون أرض، و فى تلك الأرض مكان تضعون فيه حصاد تلك الأرض، وفى وسط ذلك الحصاد تخبئون صندوق بداخله كنز ، لا يعلم بالكنز إلا أنتم الأخوة فقط، وأنتم فقط من معكم مفتاح ذلك

الصندوق، أنت واحد وأخوتك كل واحد منهم واحد، وأنتم من معكم مفتاح المكان أخوتك كل واحد منهم مفتاح وأنت كذلك، ثم سرق ذلك الكنز، ولم تجد أثار عدوان على المكان أو الصندوق، ولكن سرق !....إذا من الذى سرقه؟!

أنا فى تحديق فما يقول من كلام

- أخ من أخوتى أو أنا!

الرجل العجوز يوضح لى لأكثر قائلا

- المؤامرة، لتكون مؤامرة يجب وأن تكون أنت طرف فيها ، لتوقع بنفسك، لأن أنت الركن او العمود الأساسى..»كيد الشيطان ضعيف» فكيف يوقع بك ويتأمر عليك الا إذا «لم تزكى نفسك ودستها»...إذا تأمر أحد عليك أعلم أنك أنت السبب!...و حينما تعلم أنك السبب وتحمل نفسك نتيجة فشلك وسقوطك، ...أنذاك لن تجد أثر على من تأمر عليك لتسحقه! لأنه حينئذ تكون إنسان أخر، وجد الخطأ والصواب فيه هو فأ صلح من نفسه وتغير، فغير»إن الله لا يغير ما بقوم»....فهمت يا شارد

أجابته مسرورا

-حقا، نظرتى فيك لم تخيب، أنت حقا رجل حكيم!

-عدوك والمتأمر عليك هو «أنت «و ليس الشيطان لأنه أضعف من أن يكون خصم، و ليس أحد من الناس، كل شئ فى تلك الحياة صورة لما هو داخلك، فإذا كنت ضعيف الإيمان بالله وفى نفسك ستهزم، وان كنت مؤمن قوى بالله وفى نفسك ستظهر، ، » واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» صدق رسول الله

وأنا فى غاية السرور قلت للرجل العجوز

-عليه الصلاة والسلام، أكمل ولا تبخل لو كان عندك المزيد من الحكمة!

obeikan.com

أبتسم «الرجل عاجوز»موافقا برأسه، ثم قال
-حسنا! ولكن معى كوزان من الذرة خذ واحد وأنا واحد
ثم أعطانى كوز من الذرة لأكله فشكرته على كرمه، برغم انه بسيط الحال، غنى النفس.ثم ونحن نأكل الذرة سكت عن تناولها وفجأة قال لى.
-شارد...الخوف من الغيب!
أنا وسكت عن الأكل قائلا
-الخوف!..ماذا تقصد؟!
تجهم وجه الرجل العجوز مرة أخرى ثم قال!
-الخوف من المجهول والغيب!...يجعلك أقوى..أنت لا تخف من الفقر والمرض وزوال المال وزوال الصحة، الخوف من تلك الأشياء لا يغير شئ منك، فقط التغير «لحظى»فى وقتها ثم تعود إلى ما كنت عليه، حينما تمتلك كل شئ، و لا تخاف الغيب والمجهول «فأنت لا تملك أى شئ»! الخوف من الغيب والنهاية، يجعلك تملك أكثر!
أنا مقاطعا له فى أستغراب!
- أملك ماذا؟!
رد على الرجل العجوز قائلا فى تأمل لما يقول
- الحكمة، تملك المفاهيم بالحكمة، الحكمة «هو الخير الكثير»، هو التحكم فى مفهوم الزمان والمكان!عندما تؤتى الحكمة، تصبح غير محدود، فائق للتوقعات! سوف تكون أكثر من أن يفهمك أحد!
قلت له مسرعا
-و لكننى لا يفهمنى أحد بالفعل!
- تتكلم معهم ان اردوا الكلام معك؟!.. وتفصح لهم عن ما بداخلك أن أرادو أن يعرفوا ما تطوى نفسك؟
أنا فى تعجب وأستفهام
-نعم!

- لما؟!

-خوف من أن أفهم خطأ أحيانا.!

قال لى وقد تهت فى حكمة ذلك»الرجل العجوز»

-حينما تتكلم وقتما شئت وحيثما شئت، ضاربا بكلام من حولك عرض الحائط، حينئذ سوف تعلم ما أقصد!...لن يرضى عنك البشر.إن أعطيت أهتمام لرأيهم فيك هلكت وضللت عن الحق وعن ذكرالله

-زدنى!

الرجل العجوز يختم قائلا

-لن يبصر من حولك أكثر مما تبصر أنت به فى نفسك، »بل الإنسان على نفسه بصيرا ولو القى معاذيره»

كلام ذلك الرجل العجوز غير شئ فى نفسى، أو على الأقل خاطب شئ فيها، شئ دائما ما كان يجعلنى مستمسكا بما أريد، أنتهى الكلام إلى هذا القدر بقول الرجل العجوز

-تريد شئ أخر، دعنى أكمل تلك التخاريف..أنظر...تخاريف!....سلام

ثم أمسك الكتاب ليكمل قرأته، ثم قلت له فى سرور مما علمت منه

-شكرا على ما أعطيتنى من خير، من الله عليك به...سلام عليكم!

بعد الرجل العجوز الكتاب عن وجهه قليلا ثم قال

- أنا هنا ..إن شئت أن تأتى ثانيتا...فى رعاية الله ..يا شارد يابنى...نسيت أن أقول لك أن أسمك عجيب ولكن جميل!

أنا ضاحكا له

- شكرا

و برغم انه قال لى أن أتى فى أى وقت، الا إنها تلك المرة كانت أخر مرة أراها فيه.

الفصل الخامس
«نهر العسل»

بالرغم من أننى لم التقى ثانيتا بذلك «الرجل العجوز» لأننى علمت أنه أختفى من على وجه الأرض بل من الوجود إلى وجود أخر يحيا فيه! كيف عرفت بحاله؟!عرفت منه!بعد مرور بضعة أيام من لقائه، رأيته!أمام نفس النهر ولكنه ليس بحال النهر ولكنه هو!و كانت الساعة الثانية ظهرا فى الساعة الرملية التى كانت بيد الرجل العجوز!ولكن كانت السماء أشبه بكأنها ليلا لكنه ليس بليلا!فى تلك السماء شمس ليست بالشمس !هى شمس لكنها مابين خصائص الشمس وخصائص القمر!فهى ضوئها كضوء الشمس حينما تكون عامودية على الأرض ولكنى أستطيع أن أنظر إليها بدون أن تتعسر عينى فى رؤياها وتتأثر بوهاجها!ثم يجلس بجانبى ذلك «الرجل العجوز» بنفس هيئته حينما رأيته قائلا بعد أن نظر إلى الساعة الرملية ثم نظر لى،

-الأن يا شارد، أنت أكثر من المسموح به أن تكون !

شعرت بالخوف على روحى، فكان مايدور داخل نفسى حينما قال ذلك! هو أننى قد أكون أنتهيت، فتصببت عرقا من شدة الخوف وتجمدت يداى، ثم قلت له فى خوف.

obeikan.com

-ماذا؟!..ماذا؟!...تعنى بهذا الكلام!
ثم رفع الساعة الرملية صوب عيناه، ثم انزلها مرة أخرى، ثم قال لى فى طمأنينه ليهدأ من روعى.
-لا تخف يا بنى، هذه قيامتى أنا!
ثم سألته مرة أخرى متعجبا!
-ماذا؟!
ثم أغمض «الرجل العجوز»عيناه، ثم أبتسم لى قائلا فى هدوء وسكينة.
- أنظر أمامك يا شارد!
مع العلم أننى أرى أن كل ما يحيط بى ليس بعادى فى نفسى، ثم نظرت لم أجد شيئا قائلا!
- الما أنظر فأنا لا أجد شيئا!
يكرر مرة أخرى «الرجل العجوز» طلبه فى النظر أمامى، ثم نظرت ولكن تلك المرة فى رهبة
-ماهذا الدخان الرهيب؟!
رأيت تلك الشمس الغريبة تتوسط ذلك الدخان الرهيب والمفزع، حينما حدقت فى الشمس للمرة الثالثة!قال لى «الرجل العجوز».
-أرأيت ذلك القمر؟!
حينما قال «الرجل العجوز» ذلك، قمت واقفا خائفا، وقد أختفى «الرجل العجوز»، ثم أخذت أنظر إلى كل مكان، فأرى أكثر من قمر يظهر من أكثر من جهة مختلفة، قمر يشرق من الغرب ولونه أزرق، و قمر يشرق من الشمال لونه أخضر، وقمر على الأرض، وقمر يخرج من النهر!الغريبة أن جودة الحلم لأستعراض تلك المشاهد المفزعة أكثر وضوحا من أى حلم حدث، صادف أن رأيت فيه مثل تلك الخوارق التى بدت كأنها أكثر حقيقية عن المألوف، ثم قلت فى رعب وهلع
-ماهذا ؟...القيامة

ظننت أنذاك أنه هلاكى!فقمت مفزوعا من الحلم، لأجد نفسى جالس فى غرفتى على مكتبى!أمام نافذتى المغلقة، مرتكزة رأسى على ذرعاى، ذرعاى مرتكز على المكتب، ويغطى وجهى كفاى، ثم أنذلت كفاى من على وجهى فزعا وبسرعة، وفتحت النافذة المغلقة بخوف، ظنا من التباس الحلم بالحقيقة، لأجد البدر الأبيض يسطع فى سماء الليل الأنيق وسط النجوم المتألقة، فأشعر بالهدوء والطمأنينة، ثم لأسأل نفسى واقول لها

- أين الرجل العجوز؟..هل مات؟!

ثم لم أنتظر حتى الصباح لأذهب إلى المكان الذى فيه الرجل العجوز، فنزلت وقد أقترب الفجر، ذهبت مسرعا إلى مكانه امام النهر، ذهبت على قدمى، لأقترب من المكان الذى كان يجلس فيه، فلم أجده!و لكن وجدت العباءة الذى كان يلتف بها والنظارة التى كان يلبسها والكتاب، ورأيت تلك الساعة الرملية التى لم أراها معه إلا فى الحلم، ولكنها كانت أصغر حجما من الحلم، ثم أخذت «الساعة الرملية» ورفعتها نصب أعينى، أنظر إليها بحيرة وغموض، حتى غفلت عيناى أثناء النظر إليها، لأفتح عيناى على أذان الفجر فأجد أن كل هذا لم يكن حلما، أنا فى مكان الرجل العجوز، و فى يدى تلك الساعة الرملية، فصليت الفجر فى المكان الذى كنت أقف فيه، مكان «الرجل العجوز»، ثم حينما فرغت، أخذت أنظر مرة أخرى إلى الساعة الرملية، ثم نظرت صوب الكتاب الذى كان يقرأه ذلك «الرجل العجوز»، فأخذت أتفقد ذلك الكتاب الذى كان يطلق عليه «الرجل العجوز» «تخاريف»، لأجد ورقة صغيرة، ففتحتها لأجده موجه لى رسالة يقول فيها

-أنا أسمى «نعمان»..نعم...»نعمان» ..هذا أسمى ..يا شارد..علمت أنك ستأتى فأردت أن أترك لك تلك الرسالة، لقد تركت الدنيا بأسرها، وتنازلت عن كل شئ أملكه بإرادتى، خوفا من أن يأتى الوقت الذى يسلب منى فيه كل شئ بدون إرادتى، أردت ذلك لأن ذلك هو الطريق الذى كان لى للفوز، للفوز بالحكمة!»و لأكون أكثر من المسموح ان أكون»!

أنا فى دهشة وتعجب!
-..».نعمان»!..»اكثر من المسموح»!...ما هذا؟!...ماذا يحدث؟!
ثم اخذت الكتاب بما فيه الرسالة بيد وباليد الأخرى الساعة الرملية، وأنظر لهما حتى أتى النهار وأشرقت الشمس من خلال زجاج الساعة الرملية على اتصال من صديقى «هارون» قائلا ضاحكا كعادته:
-صديقى النذل!
ردت عليه ضاحكا مما يقوله على ويوصفنى به!
-يا صاح...أين السلام عليكم؟
ثم قال لى مرة أخرى وهو يضحك
-و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته...صباح الخير...نهارك سعيد!...جميل أنا ضاحكا مما يقول
-يكفى الأولى...ما هذا كله؟!
كان الوقت مبكرا جدا حينما أتصل، فتعجبت ثم قلت له
-الوقت باكر جدا، أيوجد شئ، حدث شئ؟!
ثم ضحك «هارون» فى خبث قائلا
-لن أقول لك شئ!
شعرت بالإستفزاز حينما أتصل بى باكرا، ظنا منى أنه يستهزء بى
- قل، لا أحب الهزار صباحا بتلك الطريقة..يا صاح هذا أزعاج.
ثم قال لى»هارون» مسرعا وصوته مسرور
-حسنا!...»كل عام وأنت بخير»
أنا كنت متعجبا لا أعرف السبب، فقلت له
-لماذا ؟!...هل اليوم عيد وأنا لا أعلم
-لا يا صديقى المعتوه
ثم قلت له غضبانا ومتعجبا!
-أنت المعتوه...يا «هارون» تتصل بى لتستهزأ..قل ما عندك ...أختصر!

obeikan.com

هارون يضحك بصوت عالى فى الهاتف قائلا
- اليوم عيد ميلاد أبو الفساده...عيد ميلادك يا»شارد«...عيد ميلادك أيها «الأبله»...من منا المعتوه..حينما تنسى يوم عيد ميلادك...إذا تصبح معتوه.. كل عام وانت بخير ..يا صاح
أنا وقد شعرت بالسرور وبالخجل من نسيانى لعيد ميلادى، و لكن فى ذلك السرور حزن، فأنا لأشعر عادتا بالفرح حينما تمر سنة من عمرى، لأنها تؤدى إلى تراكم الأسئلة عندى ولكن ردت على «هارون» بسرور، قائلا
-حقا أنا معتوه...و أنت طيب وبخير يا صاح
هارون مسرعا
-كم اتممت من العمر؟!
أنا فى حزن برغم اننى لازلت شاب
-٢٥ سنة ...يا صاح
ثم دعى لى «هارون» بدعوة، ثم قال بعدها شئ أراح قلبى
- إن شاء الله يمد ربنا فى عمرك، و يحسن عملك مع أزدياد عمرك...أمين!
أنا وفى قمة السرور والراحة بعد الخوف واليأس
- أمين يا صاح..و لك مثل تلك الدعوة..!
-أمين...شكرا يا صاح!
ثم سكت برهة «هارون»ثم قال لى فى ضحكة خبيثة مرة أخرى
-حسنا...أما الأن...يجب أن نتقابل ..مهم..مهم
قلت له متعجبا من كلمة»مهم«
-لماذا!
-لا تستعجل ...حينما تأتى ..سأقول لك
-حسنا، إذا إلى أين سنذهب؟!
-اختار أنت يا صاح؟!....
أنا وورد فى بالى فجاءة مكان دكتور»سليمان« المفضل!

-«OTree» !

«هارون» فى تعجب من أسم المكان!

-«OTree» ..هل هذا مسحوق غسيل جديد أم طعام؟!...

فردت عليه بسخرية

-هل من المفترض أن أضحك؟!

ثم ضحك «هارون « قائلا

-حسانا، هل هو مكان جديد؟!

فردت عليه قائلا

-نعم بالنسبة لنا جديد، لكنه قديم!

ثم أنتهت المكالمة الهاتفية ما بينى وبين «هارون»، و بعد ان وصفت له مكان«OTree»، ثم أخذت طريقى إلى البيت لأغير ملابسى سيرا على الأقدام وأخذت معى كل ما يخص «الرجل العجوز»أو كما علمت فى رسالته لى «نعمان»، و طوال الطريق أخذت أفكر فى كل ما يحدث من حولى من قوانين وفلسفات»الصدفة والحكمة والخارج عن الأسباب والمسموح»، إلى الإشارات من علامات الأستفهام والتعجب، عابرى السابيل يأتون لى أم أنا الذى أذهب اليهم، ظهور وأختفاء أشخاص، لا أعرف من الذى أراد من؟!هم الذين أرادونى أما أنا الذى أردتهم!الأحلام التى لم تقضى بقضاء تفاسيرها وهل يوجد تفسيرات لها أخرى عند أشخاص أخرون لم أريدهم بعد ؟!أم التفاسير عندى، من سؤال إلى أخر، و من حيرة إلى أخرى، حتى وصلت إلى البيت، لأضع أشياء ذلك الرجل العجوز»نعمان» على مكتبى، فى تعجب من أسامى الأشخاص التى تتشابه مع بعضها البعض، الخال»حكيم» مع دكتور»سليمان حكيم»، و الرجل العجوز»نعمان» مع أسم والدى المتوفى»النعمانى»، هل هى مجرد مصادفة فى الأسماء فقط أم أكثر من ذلك؟، هل هو تشابه فى الصفات أم أكثر؟!، ثم أذهب للأستحمام، فبعد ذلك أرتدى ملابسى، ثم أخذت طريقى ل«OTree» وأظل شريدا !حتى وللمرة الثانية وفى خلال سويعات أنسى

مرة أخرى أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادى، ومن يذكرنى به هو صديقى «هارون»مرة أخرى ضاحكا قائلا!

-يا صاح ..كل عام وأنت بخير

أنا للمرة الثانية انسى عيد ميلادى

-لماذا؟

هارون فى ذهول يضرب بكفيه على بعضهما البعض وبعد تعجب وسخرية يقول «هارون»لى

-ماذا دهاك يا صاح؟!...هل عندك ال»زهايمر»؟!...اليوم عيد ميلادك...للمرة االسابعة اليوم أقولها لك..أيها المعتوه

-صحيح ...حقا معتوه..و أنت طيب يا صاح

«هارون» مقاطعا لى بسؤال عن ذلك المكان قائلا فى سعادة وتعجب من أتيانى به إلى ذلك المكان

-المهم...حلو ذلك المكان وعجيب ..من الذى عرفك به؟!

قلت له فى غموض!

-لا يهم..المهم أنه أعجبك!

«هارون» متعجبا ومتسألا بسخرية كعادته!

- هل هو «سر حربى»؟!

أنا مسرعا

-نعم...يا صاح «سر حربى»!

لم يلح على «هارون» لمعرفة كيف تعرفت على المكان؟!، أو من الذى عرفنى على ذلك المكان قائلا؟!

-حسنا يا صاح...المهم ..حدث شئ يهمك أردت أن أحدثك عنه!

أنا فى أنتظار لمعرفة ذلك الشئ المهم قائلا

-صحيح يا «هارون» ..ما هذا الشئ المهم؟!

ثم نظر إلى «هارون»فى صمت ويطول الصمت والتحديق فى، ثم أقول له

بتعجب!

- ما بك...لماذا تحدق فى؟!...قل!

ثم ظل صامتا، ولكن يبتسم إبتسامة بها خبث وبها سر يخصنى، لكنه لا يريد الأفصاح عنه الا بعد أنتظار وشعور بالملل، ولكن كسر صمته قائلا بخبث!

-لم تخبرنى يا صاح!...لم تخبرنى!

أنا شعرت بالاستفزاز قائلا

-أردت أن ترانى، لتقول لى الغاز...لم أخبرك بماذا؟!...أيها الأبله

صدمنى رد «هارون»بقوله

-حسنا..حسنا...لم تخبرنى بتلك الفتاة!...تتكلم مع فتيات بدون علمى... هذلت...أين الصداقة إذا؟!

أنا ردت عليه متعجبا

-عن أى فتاة تتحدث؟!

«هارون» ينظر إلى بخبث قائلا

-تلك الفتاة!

أنا مقاطعا ل»هارون»

-»هارون»...أى فتاة؟!

-لم تقل لى أسمها.!..قالت أنك لا تعرف أسمها!...و لكنها تعرف أسمك!......و وصفتك لى وصفا دقيق.حتى ملابسك! وقالت لى...و هنا تعجبت، و لكن لا تنزعج منى يا «شارد»، أنت تعلم أن أنا أيضا أحيانا أنسى عيد ميلادى، و الحقيقة هى التى ذكرتنى بيوم ميلادك...قائلة لى...قل ل»شارد»، »كل عام وهو بخير»...و قالت لى «فقط قل له هذا»...و الحقيقة...الحقيقة ...تلك الفتاة جميلة جدا..جدا!

أنا فى تعجب وحيرة فأنا لا أعرف وليس لى علاقة بأى فتيات!قلت ل»هارون»

-و لكن أنت تعلم أننى لا أعرف فتيات!

obeikan.com

-أيها الوغد ....أيها الماكر!
أنا مقاطعا له قائلا
-هارون...إن كنت صادق ولا تمزح صفها لى!
-حسنا...حسنا!

ثم أخذ «هارون» يصفها لى وصفا دقيق كما لو أننى أراها، نعم حقا أنا أعرف تلك الفتاة الجميلة، هى حقا جميلة، ولكن لا أعرف أسمها ولا أريد!أنا لا أرى تلك الفتاة إلى صدفة دائما!و حينما ترانى تبتسم لى أبتسامة براقة وبعينها أرى نجوم ساطعة فى وجهها الذى يشبه الشمس، ولكننا لم نتكلم معا قت، لم تحاول هى ولم أحاول أنا، بمن الذى يبدأ الكلام؟!فالذى يسود الموقف عند وجودنا فى مكان واحد هو الصمت والنظارات فقط!فحينما أراها أتعمد التجاهل والتعامل معها كما أتعامل مع سائر البشر المجهولين!فأنا أراها!..و أبتسم لها!...و أنظر لها!..لكن بعقلى بالنظر إلى شئ أخر والتركيز فيه، حتى النسيان! أو أنظر لها بوجه ال «Poker face»، فأنا حتى وإن أحببت لا أصارح، أفضل السكوت!و أتعامل مع من أحب كما لو أننى أتعامل مع البشر العاديون، ليس كبر وغرور! ... حينما كنت أفكر فيها وفى كلامى عنها فى نفسى ..قاطع «هارون» أفكارى «قائلا بصياح!

-أين أنت؟!....أين أنت؟!..أين انت؟!...هاى..هاى..هاى
أنا وقد فقت من السرح فيها قائلا
- تقول شئ ..يا هارون؟!
-أذهبت بعقلك أيها المسكين؟!
أنا أريد «هارون»ان ينسى الأمر
-من؟!
-هى!
أرد على»هارون» فى إنكار وتجاهل لها
-من؟!

Obeikan.com

«هارون» يرد فى سرور به خبث ويتغنى
-الحب...الحب...الحب...يا صاح
ثم ضحكت قائلا ل»هارون» بسخرية وفى أبتسام ساخرا من «الحب«
-الحب..حقا الحب!
هارون يسأل مستعلما عن تلك الفتاة
-يا صاح ..حقيقى..من تلك الفتاة حقا لا تعرفها؟!
أنا وبكل صدق أجيبه
-نعم...لا أعرفها!

ثم تكلمنا قليلا أنا و«هارون»، ثم انتهى اللقاء، و كان لقاء لم يدم سوى ساعتين حتى أخذ كل واحد منا طريقه إلى حاله. فكان الوقت الذى غادرت فيه بعد الثانية عاشرة ظهرا، ثم أخذت طريقى راكبا»مترو الأنفاق» مفكرا فى السفر قليلا إلى الخارج للتغير والترويح عن نفسى لرؤية بشر أخرين أو لأرى شئ غيرهم! وأرى مناظر أخرى ولأكون فى حالة من السكون وهذا ما زعمته!و لكن أخذت أفكر فى أى بلد أريد ان أشد الرحال إليها، ومن الصدفة حينما خرجت من «مترو الأنفاق»، و جدت نفسى أمام شركة من شركات السياحة، وورقة معلقة على حائط شركة السياحة من الخارج، لتنظيم رحلة سياحية إلى»الصين»، ثم قلت لنفسى أنذاك.
-الصين، حقا هذا ما أريده الأن!

ثم دخلت شركة السياحة لأستفسر عن تلك الرحلة السياحية، ثم قررت أن أسافر نهائيا إلى «الصين»، أعدت حقيبة السفر وأهم ما وضعت فيها «الة التصوير الفوتوغرافى»لتصوير المناظر الطبيعية والمعالم الموجودة فى الصين والعجيب أنى أخذت معى فى الحقيبة الساعة الرملية، ساعة»الرجل العجوز نعمان» وسافرت الساعة واحدة صباحا الموافق يوم الخميس، ثم ذهبت إلى المطار وصعدت إلى الطائرة، فتلك هى أول مرة أسافر فيها إلى الخارج وأركب طائرة، كنت فرح مثل الأطفال ولكن فى أول الرحلة لم يحالفنى الحظ

بالجلوس بجانب النافذة لأرى العالم من فوق جسدا وروحا! فكنت أنظر من خلال النافذة تارة من فوق وتارة من تحت الكتاب الذى كان يقرأه رجل متوسط فى العمر يبدو عليه من بلد من بلاد المغرب العربى، ويبدو أنها ليست أول مرة يسافر فيها حينما قال ذلك الرجل وهو يبتسم.

-اهلا وسهلا !

أنا وقد شعرت بالحرج من أننى أتصرف كالأطفال لأنظر من خلال نافذة الطائرة

-أسف..السلام عليكم ...أهلا وسهلا...عفوا!

-هل تلك هى أول مرة تسافر فيها إلى الخارج وتركب الطائرة؟!

أنا أجيبه مسرعا

-نعم ...لم أسافر إلى الخارج من قبل ولم أركب طائرة قت!

ثم ابتسم لى قائلا

-تفضل مكانى بجانب النافذة...فتلك ليست المرة الأولى لى ولا أخر مرة ..فأنا أسافر إلى الخارج كثيرا

أنا فى خجل وأرتباك

-لا.. شكرا

-تفضل يا أخى بالجلوس بجانب نافذة الطائرة..ولا تخجل فأنت مثل أخى الصغير

أنا فى سرور وشكر لصنيع ذلك الرجل

-طبعا نحن اخوة...شكرا على صنيعك..و أرجو ألا أكون أزعجتك

الرجل يعاود الأبتسام، قائلا

-قلت لك أنت مثل أخى الصغير...لا يوجد أى أزعاج!

- شكرا جدا

و بعد أن شكرته، بدلنا الأماكن وجلست بجانب النافذة، محدقا إلى العالم من تحتى، لم أنم، و لم تطرف عين لى طرفة واحدة، بل أخذت أنظر كالأطفال

obeikan.com

حتى نزلت دمعة من عينى، ليس فقط لأننى راكب الطائرة وأنظر إلى العالم بأسره من فوق، بل لأننى شعرت بالتحرر، نعم شعرت بشعور «غير أرضى» شعرت كما لو اننى فى عالم أخر فى زمن أخر فى حلم، حتى حينما وصلت مطار»بكين» فى الصين شعرت بالفرح لا أعرف لماذا، شعرت بالحرية لا أعرف لماذا؟!قلت لنفسى كالمجنون

-مستحيل أنا ...أنا ..أنا فى الصين...أشعر أن هذا حلم ..لست مصدقا لما أراه!

و بعد ان خرجت من المطار، نظرت إلى السماء الشئ الوحيد الذى لم يتغير وأخذت نفس عميق قائلا لنفسى براحة شديدة

-يا الله..يا الله

شعرت فى ذلك الوقت باننى عدت طفل، شعرت بذلك الأحساس مرة ثانية ينتابنى ويعود باننى»أطير وأدور فى عالم مسحور ما بين السماء والارض»، ذهبت لألتقط صور لكل شئ أمامى يصادفنى، وكانت وسيلة أنتقالى من مكان إلى مكان سيرا على الأقدام أو بمترو الأنفاق وكان أول ما ورد فى بالى هو زيارة سور الصين العظيم، و لكى أذهب إلى سور الصين العظيم يجب أن أركب مواصلات السكك الحديدية لضواحى بكين التى تربط «بكين»المدينة الحضارية بسور الصين العظيم، أثناء ركوبى للمواصلات او حينما دخلت عربة القطار وجلست، وجدت أن هناك بشر كثيرون فى عربة القطار من جميع الأجناس والديانات والألوان، فدخلت «أمرأة عجوز» لا أفهم لغتها الصينية إلا قليلا، لا تجد مكان حتى رأيتها فقلت لها مشيرا لها بيدى بعد أن قمت واقفا بعيدا من على المكان الذى كنت أجلس فيه.

-تفضلى ...تفضلى

تنظر لى «المرأة العجوز» مبتسمة وتهز رأسها لتشكرنى وتقول لى بلغتها الصينية

-شكرا لك

قلت لها بلغتها وقد تعلمت بعض الكلمات باللغة الصينية القليلة

-هذا واجبى

فجلست «المراة العجوز» مكانى ووقفت وظهرى مستندا على الباب الأخر المواجه لباب الدخول للعربة وفى نفس الوقت كتفى مستند على أحد أعمدة القطار، مربعا ذراعاى....، ثم أنظر أمامى إذا بشاب عرفت فيما بعد ان أسمه «ماركيوس» يبدو أنه من دولة أوروبية من ملامحه وطريقة لبسه فكان يرتدى معطف وكوفيه ويجلس وبجانبه حقيبة نسائية ويتكلم فى الهاتف قائلا بصوت شبه عالى لأسمعه

-أسرعى يا «جوليت»حجزت مكان لكى بحقيبتك.

لا أعرف حينها لماذا لم أرتح ل»ماركيوس»، برغم من أنه، لا ينظر بشر أو بحدة أو بمكر لأحد أو يفعل شيئا بغيض لحد ذلك الوقت، ثم دخلت فتاة فى نفس سن»ماركيوس»إلى العربة ملامحها أوروبية وكانت جميلة وترتدى ملابس أشبه ب»ماركيوس «لكنها طبعا نسائية، عرفت فيما بعد ان تلك الفتاة أسمها»جوليت»، تلك الفتاة التى كان يكلمها «ماركيوس» فى الهاتف، ثم أخذت»جوليت» تنظر يمينا ويسارا حتى وجدت «ماركيوس» فنادته بلطف قائلة

-أنا هنا «ماركيوس»

«ماركيوس» يعطى لها حقيبتها لتجلس بجانبه، لا أعلم لماذا لم أرتح للأثنان»ماركيوس» و«جوليت»، برغم من أننى لم أتصادم معهم فى موقف سوء، أخذوا يتكلمون بصوت خافت ويتهامسون طيلة الوقت وأثناء تهامسهما ينظرون لى وأنظر لهما، كلاهما يستغربوننى وأن أيضا أتعجب من هما! يبدو ان عدم الشعور بالأرتياح متبادل!و ظللنا على هذا الحال حتى ذهبت فى النوم واقفا على ما أنا عليه! وكان ذلك الكلام الساعة» الثانية عشرة ودقيقة ظهرا»!.

رأيتنى أدخل فجأة تلك العربة، ثم جلست فى مكانى فى الحقيقة قبل أن تأتى تلك المرأة العجوز، ثم رأيت المرأة العجوز تدخل عربة القطار خلفى، تطلب

منى بلغتى العربية!
-هل تسمح لى بالجلوس مكانك؟!...يا شارد!
لم أتعجب فقط قلت لها
-نعم..تفضلى
قمت من مكانى، والغريبة أن القطار لا يوجد به إلا أنا وتلك المرأة العجوز، لم أتعجب من طلبها منى أن أقوم ولا تعجبت من نفسى أن أقوم لها لتجلس والقطار أصلا فارغ من البشر!قمت مسرعا إلى النافذة، فى الحقيقة كان القطار حينما ركبته، كان تحت الأرض ونوافذه مغلقة وصغيرة، و لكن حينما رأيته، رأيته خارج الأرض، عاليا، عاليا فى السماء يمشى سيرا فى السماء ليس على قضبان ونوافذه كانت مفتوحة وكبيرة بل معظم القطار كان من زجاج، و فى الحقيقة كان لا يوجد أو لم أرى سوى شريطين سكك حديدية تسير عليه القطارات، و لكن ما رأيته أن القطار الذى أركبه فى السماء تحاوطه، قطارت من فو قه وتحته من جميع الجهات، ولا أستطيع أن أحدد أعدادها، بل حينما أقتربت جيدا ونظرت من نافذة القطار المفتوحة التى لا فرق بينها وبين باب القطار المفتوح، نظرت من تحتى ومن فوقى فلا يستطيع نظرى أن يأتى بأخر قطار ولا أول قطار كلهم يمرون فى السماء، الهواء كان يصطدم بى، نظرت بجانبى فجأة، و لا أعلم من أين ولا كيف دخلا طفلان؟!و لكن نظرت مرة اخرى أمامى بعيدا عن الطفلين إلى النافذة، ثم راودنى أحساس بعدم الأرتياح للطفلين، لأن راودنى يقينا أن الطفلان هما«ماركيوس»و جوليت»، ثم أثناء الحلم، غفلت وبمقدار لا يعلمه إلا الله، لأن الغفلة كانت بمثابة طرفة عين لكن حينما فتحت عينى شعرت بأننى نمت ألاف الأعوام أو هذا ما أستطيع تحديده، و حينما فتحت عيناى فى الحلم شعرت أن الحلم أنتهى وبد لى أننى عدت إلى الواقع، جالس فى مكانى ولكن لم تدخل على المرأة العجوز، بل دخلا«جوليت» و«ماركيوس» فى صورتهم الحقيقة وليس كطفلان وجلسوا أمامى، بدى القطار عادى كالذى فى الحقيقة ولكنه يسير فى

بلدى وتحت الأرض ولكن من يركبوا معى ومع «جوليت « و«ماركيوس»فى القطار من الصينيين، وأنتابانى فى تلك اللحظة أننى قد فرغت من الحلم إلى الواقع، وقضيت الرحلة وعدت إلى بلدى..ثم وفجأة اخذ كل من»جوليت»و «ماركيوس» فى طرح الأسئلة بثقة على وبنفس لغتى العربية!

-دارووين علم الحقيقة المطلقة ..اليس كذلك؟!

ثم يحدث شئ غريب بعد كل سؤال، وجدت نفسى لا أتكلم معه، لكن أنظر له بتحدى وجدت نفسى فجأة كما أنا إنسان ولكن أطوف وحدى حول الكعبة فى أرض الحجاز ولكن كانت صحراء ..صحراء جليدية!.، ثم أرى نفسى أثناء الطواف جزئ صغير جدا فى الفراغ لا يرى بالعين المجردة من الموجب(+) وأحيانا السالب(-)و يطوف حول ذرة، ثم انظرإلى الذرة جيدا وأحدق فيها فأراها شمسا، وأنا جزئ ضخم فى الفضاء، رأيتنى كوكبا عاشرا، كوكبا غامض، أطوف حول الشمس، و اثناء الطواف أرانى فجأة فى القطار الذى يدور حول نفسه فى دائرة مفرغة، فى «اللا نهائية»!ثم أرى نفسى عدت مرة أخرى إلى الهند التى بدت لى»الصين»، كل هذا فى القطار ولكن تلك المرة القطار يسير فى غابة تتوسطها ظرافة «لاماركس» و«دارووين»، وبرغم أننى فى القطار إلا أننى شعرت أنه واقف فى أنتظارى وأنا أتفقد تلك الظرافة ذات العنق القصير فى تلك الغابة، فأسمع صوت أشبه بصوت «النقشبندى» ولكنه ليس هو ولا أعرف مصدره، لكن بدى لى أنه شخص يقوم بتلاوة «سنريهم اياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق من ربهم» ولكن هو فى بلد تانى بل عالم أخر، من يقوم بتلاوة تلك الأية وثم قالت»جوليت «فجأة بعد أن رأيتها وحدها بلا «ماركيوس»!

-تعالى يا شارد اصعد فى القطار قبل أن يغادر!

قلت لها متعجبا فى نفسى، وردت فعل لسانى تلقائية، لأن أنا لا أعلم متى وكيف توقف القطار. ومتى وكيف خرجت منه؟!

-نعم سأصعد!

فصعدت إلى القطار، ثم سألتنى»جوليت «قائلة، وهى ممسكة بتفاحة وسكين!
-هل المرأة والرجل متساويان عندك؟!
ثم حدقت فى التفاحة التى تمسك بها «جوليت»و ورد قى نفسى أنذاك أن تلك التفاحة كالنفس الواحدة، ثم ورد فى نفسى أن «جوليت» سوف تقطع تلك التفاحة إلى نصفين، فقطعت التفاحة أيضا!..ثم قالت لى فجأة، ومازال القطار يسير فى الغابة!
- أنظر يا شارد خلفك!.. أنه «ماركيوس» واقف على نهر العسل الأبيض، قل له يصب لنا من «نهر العسل» لنشرب منه نحن الثلاث.
ورد فى نفسى أنذاك أن»ماركيوس»يأخذ العسل من منبعه، ثم ألتفت لى «ماركيوس» إذا به هو صديقى «هارون»، فقالت «جوليت» ل»هارون»
-أصعد يا»هارون»و معك ثلاث أكواب من العسل!
فصعد «هارون» قائلا لى ضاحكا كعادته، يلومنى
-سافرت وحدك ...يا صاح ..أشرب العسل !
ثم تبدل وجه «هارون»فجأة ل»ماركيوس»، و لكن «ماركيوس «بدى على ملامحه انه رجل عجوز جدا فوق الثمانين عام، ثم نظرت إلى «جوليت» وهى تبدو فى نفس حال»ماركيوس «، شعرت فى نفسى أن هذا الأمر غير عدى ولكن تعاملت مع الأمر بتجاهل ولكن ظللت أنظر لهما حتى نزلوا من القطار، و هم فى سن العجز وأكملت أنا .ثم شعرت أن القطار يدخل إلى النفق مجددا فى الصين بمعنى»الصين»، ورأيت أمامى تلك» المراة العجوزة»جالسة قائلة لى
-»جوليت» و«ماركيوس»...كبروا فى السن وعجزوا!
قالت لى «عجزوا»بمعنى أنهم أصابهم العجز عن قول شئ، و لم تقصد»عجزوا»بمعنى كبروا وشابوا وهذا ما ورد فى نفسى، ثم أختفت تلك المرأة العجوز حتى وصل القطار وأنا وحدى، لأنزل منه واجد نفسى فى قمة

obeikan.com

السعادة والأرتياح لا أعرف لماذا؟! وأنا أرى مسجد بجانب «سور الصين العظيم» وأرى يأجوج وماجوج ثانيتا يتدفقون كما يتدفق شلال المياه بغزارة، و أرى خالى «حكيم» يظهر مبتسما فجاة ويختفى فى لمح البصر، فقط شعرت بالقوة!، و شعرت بأننى أرى ملحمة بها هرج ومرج، ثم أستيقظت. على هرج ومرج داخل القطار، الناس يلتفون حول أحد لا أعرف من، لم أرى «جوليت»و «ماركيوس»، بالرغم من أن القطار لم يتوقف ولكن رأيت المرأة العجوز فقط، ثم نظرت إلى ساعتى وكانت الساعة «الثانية عشر ودقيقتين ظهرا!»، قلت فى نفسى.

-سبحان فى دقيقة واحدة فقط، رأيت تلك العجائب والاهوال، أرى الليل والنهار وأشباههما، القطار يطير فى السماء السماء والأرض، و يعبر حواجز الزمان والمكان، ظرافة داروين، وهارون، و المراة العجوز تلك الجالسة امامى، و«جوليت» و«ماركيوس» وأتحاور معهم، وارى خالى»حكيم» فجأة، ويأجوج وماجوج، وهرج ومرج فى الحلم، لأسيقظ على هرج ومرج فى العلم، ولا أعرف متى وكيف بدأ الهرج والمرج ؟!لأعرف هل لتلك الدرجة الدقيقة الواحدة تغير من الأحوال، وتكون بمثابة أزمان !

ثم سمعت أصوات تخرج من داخل ذلك اللفيف والصريخ!

-أغبياء...أغبياء!

-جهلاء...جهلاء!

فأذهب، لأرى وإذا فوجدت بأن الناس يلتفون حول»جوليت « و«ماركيوس»و يصرخون فيهم وينعتوهم ب»الجهلاء» و«ماركيوس» و»جوليت»ينعتوهم ب»الأغبياء»، ثم جاءت عيناى فى الأثنين»ماركيوس وجوليت» بإرتباك!ثم نظر لى «ماركيوس»بحدة وخبث قائلا.

-قل لى، بدل النظر لى طويلا ول»جوليت» بلا داعى، ماذا تعرف عن داروين؟!

سكت الضجيج بعد سؤال «ماركيوس» لى ثم ابتسمت، إبتسامة العارف

obeikan.com

بشئ أو المنتظر لتحقيق حكمة ما!، ثم نظر لى «ماركيوس» متعجب مكررا السؤال بصيغة أخرى

-لما تبتسم؟!...لبد أنك تعرف عن نظرية التطور ل»داروين»..هات ما عندك؟!...هل الإله موجود؟!

ابتسمت أكثر فأكثر، و بعد الصمت الطويل، أجبته بطريقة أخرى وبردت فعل تلقائية كما لو أنى أنطق بلسان غير لسانى، قائلا

-لا أعرف كثيرا عن «داروين» ! لكن أعرف شئ عقلانى جيدا...اسمه «الإحتمالية»!

يزداد القطار صمتا، ثم ينظر لى»ماركيوس «قائلا فى تركيز ويحدق بتحدى فى عيناى، وفى احترام قائلا.

-ماذا تقصد ب» الإحتمالية»؟!..

أنا سكت ثم قلت له!

-احتمالية ان يكون الإله موجود، أو لا يكون له وجود!...أو يكون اختراع بشرى مثلا!

سكت «ماركيوس «برهة ثم قال لى بإستفهام وإنكار فى أن واحد!

-و ضح أكثر!

ثم بدأ الجمع فى الإنتباه، ثم ردت عليه موضحا له

-العقل والمنطق ..يستدعيا دخول الاحتمالية فى هذا الامر...انا لم ابتدع الأحتمالية...هى من قديم الاذل والسلف. إذا لم انكر وجود الإله...و قد يكون موجود اصلا...و لكن لا أراه!

يزداد النقاش حدة بقول»ماركيوس»

-إثبت لى بالادلة الملموسة!

أنا مسرعا وفى ابتسام!

-لن أقل لك أنظر حولك إلى السموات والأرض وإلى الجبال، برغم انك إذا أعملت عقلك لحظة فى الكون..بعيدا عن ضجيج المادة، تعلم أن النظر

لزرعة تنبت فى الأرض وجنين يبدأ فى التحرك بعد ان أكتملت أعضاءه المتصلة ببعض، متى كانت إشارة بدء الحياة له، بدء «التشغيل»؟!..و لكن أجب على أنت؟!

مركيوس مسرعا فى ذهول وتحدى ايضا

- أجيب عن ماذا؟!.

أنا مسرعا

-هل العلم كل يوم فى جديد وفى تغير؟!، وما يثبته العلم اليوم قد يثبت عكسه غدا؟!

-نعم أكيد!

يشتد النقاش حدة، وترقب الناس لردة فعل كل واحد منا، ثم طرحت السؤال التانى عليه قائلا

-من؟... ومتى؟؟...وكيف؟؟؟..و الإثبات؟؟!..جملة «ان المادة لا تخلق ولا تفنى من عدم»؟!..هل تؤمن بها؟؟...هل عرفت وتكلمت «المادة» للبشرية وأفصحت عن نفسها «أنها لا تخلق من عدم»؟!

يرد «ماركيوس»مسرعا بعد نظر «جوليت» له فى صمت!

-هذا شئ معروف!...كل شئ مخلوق من المادة الأولية!

أنا مقاطعا له

-كيف وجدت المادة فى العدم ؟؟ فى الفراغ؟؟...كيف وأين كانت قبل ان توجد ؟؟..و على أى حال كانت؟؟..و متى قررت فى الظهور ؟؟...»المادة لا تخلق ولا تفنى من عدم»!...إذا المادة «إله» بمعنى اصح وجدت قبل الوجود لو هذا هو تعريف المادة إذا هى «الإله»، برغم من انها لم تفصح عن نفسها، فهناك «إله» يقول بأنه وجد قبل كل شئ وبعد كل شئ...أول بلا بداية، أخر بلا نهاية، مطلق عن الحدود، ظاهر وباطن، تصطدم مقولة»المادة لا تخلق ولا تفنى» من عدم مع فلسفة الوجود، برغم أنها تقر بوجوديتها قبل اى ..شئ ...إذا لما لا أضع إحتمالية وجود الإله بجانب عدمه، و هو تعريفه كالمادة..

لن أخسر شئ.
شعرت أن»ماركيوس» أخذ فترة فى التفكير، وظلت «جوليت»صامتة تراقبه!ثم قال «ماركيوس «فى هدوء،
-وضح لى..بدليل؟
قلت له فى هدوء وتفكر
-تعرف ان الإله» صمد»؟!
ماركيوس فى تعجب
-و ماهو الصمد؟!
-الصمد»هو الشئ الذى يستحيل شئ أخر إختراقه، لا يوجد به ثقوب»
-حسنا!..أكمل
-»العلم كل يوم فى جديد»؟!......حسنا!
-حسنا..أكمل ...أسمعك!
-حسنا....»الذرة»...فى نظرية «دالتون»و صف دالتون الذرة» بأنها»مصمتة متناهية الصغر، لا تخترق وغير قابلة للتجزئة»...و وافق رايه»طومسون»الذى وصفه أيضا بنفس الوصف أنها «مصمتة لا تتجزء « ولكن موجبة (+)... تعرف ما معنى هذا؟
-مامعنى ذلك؟
-لو فرضنا أن هناك إنسان مؤمن بأن الإله»الصمد» اى «الشئ الذى يستحيل اختراقه».. وعلم ذلك سوف يصبح ملحدا...لأنه أسلم عقله لبشر مثله حينما قالوا «أن الذرة مصمتة غير قابلة للأختراق ولا التجزئة»...إذا «لم يعد الإله هو الصمد الوحيد بل المادة هى الصمد الحقيقى»...حتى يأتى «روذرفورد «بنظرية جديدة ليصف «الذرة «وصف أخر «بأنها ليست الأصغر بل النواة ومعظم الذرة فراغ اى قابلة للأختراق ولم تعد مصمتة» وياتى من بعد»روذرفورد» عالم أخر أسمه «بور» ليوافق «روذرفورد» الراى فى أن الذرة غير مصمتة بل مفرغة»، قل لى ما الذى يجب على ذلك الإنسان فعله بعد

obeikan.com

أن أسلم نفسه لبشر مثله قاده للألحاد؟!تعلم أننى أصبحت على يقين ان كثير من الناس ينطبق عليهم مقولة»الإنسان عدو ما يجهل«، صحيح أن اختلاف العلماء على شئ واحد جدير بان يقود «الإنسان» إلى «الإيمان»، بعد أن أكتشف ان علماء الطبيعة لا يختلفو عن علماء الدين، لو كان سبب الألحاد هو اختلاف علماء الدين فى فكرة واحدة، كلاهما «عالم الدين» و«عالم الدنيا»فى النهاية بشر، »رأيهم يحتمل الصواب أو الخطأ«، و لا يعرف الحقيقة المطلقة الا «الله».

ثم أجد «ماركيوس»يعمل عقله قليلا، حتى تفاجئنى»جوليت« بسؤال قائلة

-لكن الإله لم ينصف البشر، كالطبيعة «أنا أعلم ان الطبيعة ظالمة»، مثلا المراة لا تتساوى مع الرجل، فبما انصف الإله المراة مثلا؟..لا اتسأل عن اشياء تافهة...و لكن عن هذا الكيان «المراة»...المبادئ البشرية جعلت المراة تتساوى مع الرجل، رغم انف الطبيعة، ليصبح الرجل والمراة «إنسان « فقط، قل لى

-هل عندك مشكلة فى الإيمان بالغيب اصلا؟؟!

جوليت فى تعجب!

-لا...انا اريد ان أؤمن ..فالحياة بعد الموت غاية ليتها تتحقق!

أنا وقد شعرت بشئ ما، بأن فى حقيبة»جوليت« تفاحة!...خفت من أن يخيب ظنى ..لكن قلت لها

-أيوجد تفاحة فى حقيبتك؟.

قالت لى بعد ظهور علامات التعجب والاستفهام على وجهها!

-كيف عرفت؟!

-صدفة...المهم تسمحى أن تخرجى التفاحة من حقيبتك؟؟!

جوليت أخرجت التفاحة من حقيبتها بعد ان وافقت قائلة:

-حسنا !..ماذا بعد؟؟!

-تعلمى ان الإله خلق الرجل والمرأة من نفس واحد ة.؟!..أنتى فرحة بالمبادئ

obeikan.com

الإنسانية الوضعية..التى ساوت ما بين الجنسين أخيرا بعد عناء للمرأة، تعلمى ان الرجل والمرأة كانوا فى الأصل كتلك»التفاحة»، نفس واحدة ثم بثت منها رجال ونساء، وان الإله يحاسب على اساس التقوى وليس الجنس، قال رجل حكيم يعش فى الصحراء يوما من أكثر من الف وربعمئة عام، ان «النساء شقائق الرجال»!، كالتفاحة التى شقت إلى نصفين، قولى لى لو ان الرجل والمرأة خلقوا من نفس واحدة، هل يهم من الذى خلق أولا، الرجل أم المرأة، الرجل خلق منه امرأة ثم اخرجت تلك المراة رجلا اخر ليخرج ذلك الرجل أمراة اخرى، أو العكس المهم ما الفرق، هل تعتقدى، ان لو خلقت المراة من نفس الرجل ينتقص منها شئ؟! وهل الرجل الذى يخلق من نفس ما خلقت منه المرأة ينتقس منه فى شئ؟!»فالمياه تظل مياه فى الاصل سواء كانت عذبة او مالحة،نهرا او بحرا، فى الأخر مياه»

جوليت تصمت طويلا ثم قلت لها

-أقل لكى شئ اخر؟!

-تفضل؟

-تعلمى أن الإله أكبر مطلق عن الحدود، تعالى عن ما تصفه السنة الناس، ليس كمثله شئ؟

«جوليت»فى تعجب واستفهام تقاطعنى

-ليس كمثله شئ؟!

-نعم أن الله ليس كمثله شئ...فهو ليس ذكرا أو أنثى، و لا ينبغى له ان يكون هكذا، هو حقا مطلق عن الحدود، حتى لو عرف نفسه بصيغة المذكر»هو»، »فهو يعرف نفسه كما أراد ان يعرف»، و لكنه أعلى بكثير.. نحن نقوم بقياس كل شئ بمعاير البشرية واهوائنا.

-كلامك يبدو منطقيا

-شكرا

فض الجمع وظللنا نحن الثلاث فقط، واقفين والقطار لا يزال يمشى، تذكرت

حلم»هارون»صديقى عن نهر العسل.و جوده مع «ماركيوس»عند نهر العسل مرة أخرى، و حينما فكرت فى ذلك الأمر، قطع «ماركيوس « افكارى بسؤال عجيب منه كما لو إنه يعلم شئ اعلمه.

-فيما تفكر الأن؟

تبسمت له قائلا

-فى نهر من عسل!

«ماركيوس «فى تعجب وذهول

-كنت أشعر بأن هناك شئ يدور داخلك أشعر به!..نهر من عسل!

شعرت انذاك بمفهوم»الإرادة»، مفهوم الذى سبق ان اردت به دكتور» سليمان»لأطلعه على شئ، هو يعلمه، واللافت فى النظر ان فى الحلم الذى رايت فيه «ماركيوس»لم يتكلم إلا بعد أن اصبح»هارون»، فهل الصمت انذاك يعنى انه علم شئ عنى، أو علمت شئ عنه فى أن واحد، من الممكن إحتمال،. ثم رد «ماركيوس» قائلا باحترام

-سامحنى...هذا لا يعنى...انى اؤمن فى ما انت والاخرون تؤمنوا به...ولكنى افكر بصوت عالى معك..لأن قدرات العقل الباطن ..قد تصل إلى اكثر من هذا الحد..كل ما تتخيله!

ثم ردت عليه مسرعا

-و الاحساس لما تتخيل به...؟!

-لا افهم قصدك!

انا موضحا له قائلا

-ساوضح لك..حينما تكون فى سريرك ونائم وتحلم ان النار تاكل فى جسمك، لما لا تقتصر على رؤية النار فقط لما الاحساس بالحرق!..و هذا هو الذى ما يبعث فى نفسك الخوف!

ثم لم يفكر»ماركيوس»كثيرا بل اجاب

- لانك توهم نفسك ان النار تحرق...فإذا لمست يدك النار وأنت لا تدرى...

لا تشعر بحرق..الا ان ياتى احد فيقل لك أنت تحترق، حينها تشعر!..بالايحاء انا ردت علية محترما رايه قائلا

-إجابة تحترم...الذى يشعرك بالحرق...ان مفهوم النار مرتبط بالحرق...و مع ذلك كل من يلمس النار يحرق..وهذا ما يعنى ان الإنسان هو من يوهم نفسه بتلك الأشياء، مما يعزز موقف الإيمان وليس الكفر بالإله

«مركيوس»متعجبا سائلا

-كيف؟

-تعلم قصة النبى»موسى» والسحرة؟

-نعم، وأؤمن بان السحرة وهموا الناس!

ثم ضحكت قائلا

-و من الإيمان أنك تؤمن ان»سحرة فرعون»»سحروا أعين الناس»، تعلم لماذا

-لماذا؟!

-ليرهبوهم، و يزرعوا فيهم الخوف، حينما تتحول عصيانهم إلى ثعابين، و اكثر الناس أمنوا بان تلك العصى بإمكانها التحول إلى ثعبان، و لكنه كيد سحره وهم»سحروا أعين الناس»

-معك..اكمل!

-إذا من الممكن أن يكون العسل مستخرج من نهر وليس من نحلة!

ماركيوس رد فى شك

-و لكن العسل يخرج من النحل فعلا!

-لماذا لا يرتبط عندك الحرق بالنار، و يرتبط عندك العسل بالنحل، برغم انك على يقين انك رايت نهر العسل فى عقلك الباطن، و يحضرنى هنا مقولة تقترب إلى الحقيقة «لبابلو بيكاسو»حينما قال»كل ما تتخيله حقيقى أو موجود»

ماركيوس فى حيرة ولكن لا يزال على موقفه

-من الممكن

obeikan.com

-تعلم اننى فى نفس الوقت الذى اؤمن ان العسل ظاهرا ياتى من النحل، أؤمن بانه ياتى باطنا من نهر، و فى نفس الوقت الذى اؤمن بأن الجبال صلبة أؤمن بان الجبال ضعيفة كالقطن، وفى الوقت الذى اؤمن فيه ان السماء زرقاء اؤمن فيه انها وردة كالدهان!

«ماركيوس»متعجبا قائلا

-ما هذا ولماذا؟!

انا فى ابتسام

-بالمفهوم الارضى هذه نظرية»الاحتمالية»، و لكن بالمفهوم «الغيرأرضى»هو الإيمان، ماذا اخسر ان كنت هكذا وان تكون انت هكذا، ان كان باستطعاتك الادرك بمفهوم «الوهم»، ان النار لا تحرق فى حين انها تحرق، اذا من الممكن ان تكون الارض التى نعيش عليها الكروية التى تدور حول الشمس وسط اقرنئها فى ذلك الفلك الواسع «وهم»، وإن وقع!فى حال ان ممكن لتلك الأرض ان «تمد» يوما ما ويصبح ذلك هو «الواقع» وكل المفاهيم تتغير وتسقط!

-لا افهمك!

جوليت فى حيرة بعد سكوت طويل

-و انا ايضا..وضح!

حينها تذكرت الخال الحكيم وكلماته قبل ان يسافر وهذا ما قلته لهما، و انا اهيم فى عالم اخر وعيناى تمتلئ بالبريق كالذى رايته فى عين خالى، و لكن تلك المرة لذكره، كما لو اننى اراه بجانبهم حينما قلت لهما

-هناك رجل قال لى من زمن قريب، حكمة قديمة تقول»من ساعت ما وعيت على الدنيا»...سمعتما بهذا من قبل؟!

-نعم ...أكيد..سمعت بها كثير!

-سمعت بجملة بنفس المعنى!

-هل تعلما وهل يعلم بطل الفيلم أين ومتى وكيف ظهر لأول مرة وأين

ومتى وكيف أنتهى به الحال ؟!..وكيف كانت حياته فى ساعة ونصف أو ساعتان.

غلبت عليهما الدهشة والصمت الطويل ثم قالت جوليت، بصوت خافت متقطع.

-لا....لا أعلم!

ثم أزدات الحدة فى صوتى والبريق فى عيناى!

-أتعلما متى تدخلى فى الحلم ومتى تخرجا منه؟؟!....أتعلما فى أى زمن أنتما وكيف تنتقلا من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن، ومن الذى تحركاه وتتحكما فيه أنتما ومن الذى يحرككما ويتحكم فيكما....و كم أستغرقتما أيام!...قرون!..ألاف!...ملايين السنين!.. متى كان الفجر وما معناه والغروب ومعناه ؟! وهل كان هناك فجر أو مغرب ولا أشباه..وكيف كان كل ذلك أمامكما يحدث تموتا وتحيا فى أن واحد وتعجزون عن رفع جسدكما وتطيروا بلا أجنحة فى ان واحد، فى دقيقة ودقيقتان بداخلهم ألف أو ألفان أو يصبح مصير الوقت الأوهام والأنعدام؟!

تزداد علامات الذهول على كل واحد فيهما

-لا...لا أعلم...يا .. ومن يعلم!

يقولها بنسيان وإنكار، ولكن حينما قلتها فى زمانها كانت فى نسيان فقت وفى حالة من حلات السكر العقلى»لا»، وهذا لأختلاف طبيعة كل إنسان منا ولكن أكمل قائلا

-متى وكيف دخلتما الحياة الدنيا؟؟... متى كان أدراككما ووعيكما للوجود ؟!...متى كنتما؟؟......كيف الخروج منها ومتى؟؟...كيف قضيتما بسرعة الأيام والسنين؟...ما الذى سقط من ذاكرتكما وحساباتكما؟؟....و ما الذى أحتفظت به ؟؟...ولماذا؟؟...صدفة أم حكمة؟؟

« وما الذى أحتفظت به»، أخر جملة كانت موجها ل»ماركيوس»ليست عن عمد، أخذ كل واحد منهما التفكير ظل»ماركيوس»صامتا، ثم قالت «جوليت»

-لا.. أعلم..و لأول مرة أشعر بحيرة!
ثم نظرت لها قائلا
-الفلم...الحلم ...العلم ...واحد!...هل علمتى ما تحمل تلك جملة من عمق؟!
-نعم
- كلامك عجيب!ولكن كيف تتغير المفاهيم؟، و كيف يكن حالك؟، و ما حالك حينما تتغير؟
-تتغير المفاهيم بنفخة تموت وبعدها تحيا، و حالى كالسكران«لا اعلم ان كنت فى حلم ام علم»حينما اعود، و حينما اتغير ويتغير كل شئ من حولى فقط.أكون أسلمت للحقيقة، «تسقط المفاهيم الظاهرية الغرورة لتقوم مفاهيم أخرى هى الحقيقة، قد تكون المفاهيم والمعانى ثابتة ولكن تتغير احوالها وابعادها، قد يكون مفهوم الشمس ثابت لكنها ليست كالشمس، «وحينها لا يسمى الغيب غيبا، الا حينما يظهر على الواقع فيسقطه بظهوره»
وصلنا إلى نهاية المحطة، فقالى لى
-من انت؟!
-إنسان مثلك
-هل تؤمن بالإله؟
-نعم
-ما اسمه؟!
-لأنه الوحيد القادر على الفصل بين البشر، العدل لأنه لا يظلم أحدا قت!
نرى، فنتحير، فنعلم.فنلهم، فنتيقن، فنفعل، فنتحرر، فقط وذهب كل واحد منا إلى طريقه، لم اشعر بانى انتصرت عليهما أو عجزتهما لأنهم بشر، مثلى مثلهما، ما أردته فقط أن يتحيرا، و لا يسلموا عقلهم لبشر،فقط أردتهم أن يفكروا، فيما يستحق فعلا ان يتفكر فيه الإنسان، و لكن ما شعرت به من داخلى هو السلام، لأنتصارى على العدو الحقيقى الهوى، على أقل فى ذلك الوقت!فحينما يجنب الإنسان هواه، تنهار كل المفاهيم والقيم الوضعية

فى سبيل معرفة الحق وحينها يدرك وهم «الدنيا»، فى الأول والأخر، من بيده أو أياديه الحكم هو الله، ولكن حينما خرجت خارج القطار، شعرت بالسعادة، ووضعت يدى فى جيبى لأخرج منها «حجتى»، »سيفى»، »حجة الله البالغة»، »القران».

ذهبت لألتقط صور جديدة، لمكان جديد، وأنا مفكرا فى شئ .، فى تلك الفتاة التى حدثنى عنها «هارون»، التى لا أعرفها ولا تعرفنى، صحيح ليس كبر وغرور، أن أتجاهل إذا أحببت، قد يكون لحبى فى الوحدة وعشقى للحرية وان أكون شريد مستقلا، أو لقداسة الحب عندى، فإن اول علاقة كانت مابين الله وأدم، و ثانى علاقة كانت ما بين أدم وحواء، والعلاقتين كانت خارجا الزمان والمكان، قبل التاريخ، علاقة أسطورية، مما يجعل لتلك العلاقة فى ذلك الواقع قداسة، وهى العلاقة الوحيدة الذى يتخيلها المرء قبل ان تحدث، علاقة غير مفهومة سبب الإنجذاب فيها، فى ماذا كان يفكر أدم وحواء ليخلقوا لبعض قبل ان يكونوا، ذلك السحر الجميل، تلك العلاقة بدأت قبل التاريخ وسوف تعود من جديد بعد زواله لكن ابدية بلا نهاية، لا اعلم لماذا فكرت فى تلك الفتاة فى ذلك المكان الخلاب، حتى أغمضت عيناى.

رأيتنى.أقف على جبل فى مكان أشبه بالجنة أعجز عن وصفه عالى وبين ذلك الجبالين مياه وأراها هى الأخرى تقف على جبل عالى، أراها برغم بعد المسافة لأميال أو سنين أو بمقادير بعد أخرى، ثم رأيتنى أرجع بظهرى إلى الوراء كما أراها تفعل ذلك الشئ من عن بعد!..ثم لأطير بقوة متخاطيا كل الحواجز الزمانية وتفعل هى مثلى نفس الشئ، ما أجمل ذلك الشعور، شعور انك تطير بقوة مثل طائر العنقاء، حتى أنظر إلى المياه من تحتى كالمرأه تعكس صورتى وانا طائر وهى تفعل مثل ما أفعل، ثم أغطس فى عمق ذلك الماء وانا أطير فى سماء لأشعر بأننى لزلت طائرا لست بسابح فى أعماق المياه، وهى تفعل مثل ما أفعل وحتى أقتربت المسافة بيننا جدا، ثم لأصعد أنا وهى من أعماق المياه بقوة إلى السماء نحو شمس ساطعة ليست

كالشمس، و يظل هناك حاجز بيننا حتى ولو كان معدوم، حاجز من المياه النقية العذبة! ثم لأفتح مرة أخرى عيناى ظنا من اننى فى الواقع .

نعم فتحت عيناى فى واقع حلم أخر، لكن ذلك الحلم كان حلم أليم، و جدت نفسى فى ساحة واسعة جدا على مد البصر، بها رجل غامض!يرتدى ملابس سوداء غير واضحة المعالم حتى وجهه مغطى بربطة سوداء بأكمله إلا فتحة واحدة لعين واحدة، يحدق بها لى كال»بومة«، و بيده قبعة سوداء، ثم يضعها على رأسه فجأة، بالقبعة فص «أسود»ضخم، ثم يحنى رأسه، و يرفع يده مشيرا بأصابعه الخمس، ثم أختفى فجأة، لا أعرف كيف؟!و ما هذا ؟!و لم ينتبنى إلا الخوف!ما زلت فى ساحة معركة فى صحراء جرداء، محاطة بجبال تظنها سراب من كثرة الضباب الذى يعلوها، ثم بنصف تلك الساحة أشجار شيطانية يابسة، متفرقة، وجودها نشاذ فى تلك الساحة الجرداء، لأجد نفسى وسط معركة حقيقية، أنهم بشر من جميع الأجناس والألوان، بشر بأسلاحتهم من جميع العصور من بداية التاريخ حتى نهايته! على خيوليهم وأفيلاهم وأشياء أخرى يركبونها تشبه المسخ وعلى دباباتهم!، ، ينزلون من أعالى الجبال ويهبطون من السماء، من كل حد وصوب، بسرعة وبقوة، و تهطل الأمطار بغزارة كالسهوم والرماح وتهب العواصف والأعصاير، والبرق والرعد فى كل مكان، رايت معهم جميع الأسلحة، البيضاء العتيقة وغيرها مستحدثة وغيرها لما أرها بعد قت، يهتفون بأسمى ويصرخون ويهجمون على وانا وحدى أجرى بقوة، ولم أنجو من هلاك محتوم، إلا باليقظة أمام ذلك المنظر الخلاب الموجود بالصين.

obeikan.com

الفصل السادس
«بوابة السماء وبوابة الجحيم!»

أخذت أنظر وأتمتع بذلك المنظر الجميل، تلال خضراء وجميلة، و أشعر فى نفسى بسعادة، أشعر أننى وصلت، أشعر بالقوة!، أشعر بإحساس غريب! ولكنه رائع، وجدير بالإعجاب، وسألت نفسى؟!ولكن لما أشعر بأننى لا أريد ان أجاهر به، لماذا اشعر بانه أحساس يشوبه احساس أخر، يوجد شعرة ما بين شعورى بتلك السعادة وما بين اليأس!لا أعرف ولكن شعرت أن تلك الشعرة تنزع ببطئ من بين مجموعة من المفاهيم والأحاسيس المختلفة والمشبوهة!أخاف من ان تختلط تلك المفاهيم الجميلة بمفاهيم أخرى...! ثم قطع حبل أفكارى، رجل قصيرالقامة فى أوائل الخمسينات من عمره يبدو على ملاحمه أنه من سكان الصين الأصليين عرفت فيما بعد انه يدعى»شانج شين»، فرحا، قائلا بالانجليزية!

-أنا «شانج شين»..أهلا وسهلا؟!

«شانج شين» طوال الوقت مبتسما فرحا، يذكرنى بصديقى»هارون»، أنا لم اتعجب من أنه لم يتكلم معى بالصينية فأنا لا أشبه سكان الصين، و لكن تعجبت من سرعة استخدامه للانجليزية معى فقلت له!

-أهلا وسهلا ...أنا «شارد»..أنت شخص ذكى...كيف عرفت انى اتكلم الانجليزية دونا عن بقية اللغات!

«شانج شين» قال لى مسرعا وهو يضحك!

-كما قلت أنت! ..اننى شخص ذكى وسريع البديهة، عندى فراسة، استطيع أن أحلل شخصيات من حولى بسهولة واعرف عنهم الكثير وافهم طباعهم!

أنا شعرت بانه متعجرف قليلا، و لكن قلت له!

-ولكن كيف عرفت باننى أتكلم الانجليزية، كيف قادتك فراستك، الا اننى أتكلم انجليزية؟!

بكل ثقة قال»شانج شين»

-وجهك وبنيتك يشبهان الغرب ولكن يغلب عليهم النزعة الشرقية، وروحك شرقية أصيلة ذات نزعة غربية متحضرة، فأنت مخلط، ما بين بلاد الغرب والشرق

انا مسرعا متعجبا!

-غريب ذلك الامر!

«شانج شين»مقاطعا تعجبى بجملة غامضة مسرعا

-لا يهم، يبدو عليك انك تتكلم الإنجليزية، وها وقد صدق حدسى، فالحدس لا يحتاج إلى اسباب مادية !..بل مرتبط بالفطنة والذكاء

أنا متعجبا اكثر من تلك الجملة قائلا

-صحيح..ليس بضرورى وجود اسباب!

ثم نظر «شانج شين» إلى «الة التصوير» التى امسك بها، ثم قال «شانج شين».

-جميلة «الة التصوير»تلك ولكن ليست بالحديثة.

-حقا، أود شراء واحدة احدث غيرها!

ثم طلب منى «شانج شين» طلب قائلا

-شارد..ممكن تلتقط لى بعض الصور هنا، بتلك «الألة» وسط تلك المناظر الخلابة؟

وافقت على طلبه قائلا

-حسنا، لا يوجد أى مشكلة بالطبع!

Obeikan.com

ثم اخذت التقط له العديد من الصور، و لكن وجدته شخص برغم انه يبدو ضحوك وخفيف الظل وعادى ليس على قدر من الوسامة، إلا انه صاحب نزعة»نرجسية»، معجب بنفسه، فانه يريد ان يلتقط له الصور فى كل مكان، و بعد ان انتهيت من تصويره نظر»شانج شين» إلى الصور الموجودة على ذاكرة «ألة التصوير»قائلا

- أنت تصور بإحتراف، انت صاحب نزعة فنية!

أنا مقاطعا له فى تعجب!

-نعم صحيح..أنا صاحب نزعة فنية!

ثم نظر لى»شانج شين» بعد تلك الجملة فى ابتسامة عريضة وخبيثة قائلا

- ولكننى أوسم فى الحقيقة!..أوسم من ذلك بمراحل..و لكنك على اى حال محترف، أنت محترف!

ثم سكت، ثم ابتسم قائلا مرة اخرى

-سلام يا شارد..!

ثم قلت له متعجبا

- صورك، الا تريدها؟!

ثم ابتسم «شانج شين» بجدية لأول مرة قائلا

-فقط، أردت ان أعرف مدى قدرتك على الإبداع !

أنا ردت فى ذهول

-ماذا؟

ثم رد على بعد أن بدل ابتسامته بضحكات

-انت حقا محترف!و لكنى أوسم مما اظهرتنى فى صورك!..على اى حال شكرا..سلام!

أنا متعجبا، علام يضحك ذلك الرجل ولكن قلت له

-حسنا ..سلام

ثم غادر، و لم اعير اى انتباه لما حدث سوى أنه على قدر معرفته بأشياء كثيرة

عنى بفراسته كما يقول! إلا انه متعجرف بعض الشئ!ثم أثناء سيرى شعرت بالجوع، فوجدت مطعم صينى بسيط به أكلات ذات رائحة شهية، غريبة الشكل احيانا، فوجدت عنده، شربة بالجمبرى وهذا ما أعرفه من وسط بقية قوائم الطعام، و كان مكتوب عليها بالإنجليزية أن سعرها «١٥يوان» صينى،، فقلت لمقدم الطعام مشيرا إلى صحن الشربة بالجمبرى.

-أهلا وسهلا، أريد ذلك الطبق!

ثم نظر إلى مقدم الطعام ثم أشار بيده مرتين، فى المرة الأولى بأصابعه العشرة، و المرة الثانية بخمسة أصابع، أستشفيت منه الكلام، بأنه يريد اعلامى بسعر الطبق قائلا !

-١٥ يوان الصحن

أنا أهز رأسى بالموافقة مبينا له اننى أعلم قائلا

-نعم،، نعم

ثم وضعت يدى فى جيبى لأخراج المال، فشعرت فى جيبى بورقة غريبة لم تكن فجيبى لم اخرجها، و لم ياخذنى الفضول لأخرجها فكنت جائعا، و اخرجت المال فقط، ثم أعطانى مقدم الطعام، الصحن واعطيته المال، ثم خرجت من المطعم، أكلا للطعام أثناء السير، حتى فرغت من الأكل، ثم شردت قليلا، فتذكرت»شانج شين»، و تذكرت الورقة الغريبة فأسرعت بوضع يدى فى جيبى، و أخرجت الورقة، فذهلت، و كدت أجن قائلا لنفسى!

-ما هذا غير معقول ؟!

وجدتها رسالة من»شانج شين»، لا اعلم متى وضعها فى جيبى؟!و لكن ما اصابنى بالسرور والجنون، فى نفس الوقت، ما وجدتها فيها!وجدت «شانج شين»قائلا!

-»تلك الرسالة من السيد»شانج شين» إلى السيد «شارد»، أعلم انك تتعجب من كيف ومتى كتبت لك تلك الرسالة، و كيف عرفت أسمك، لكنه لا يهم!المهم انى اردت أن أرى قدرتك على التصوير، حينما رأيت ألة التصوير

فى يدك، انت حقا موهوب، سأقول لك شيئا !لا تعتقد انى أمزح معك حينما أقول فقط أريد منك ٥٠ صورة فقط لمكان واحد من ٥٠ زاوية، تسأل نفسك الأن، ماهذا ؟؟، و ما المقابل، سأقول لك أن رجل غنى جدا، وعندى غرفة فارغة وعريقة فى قصرى، لا يوجد بها شئ مطلقا وودت لو وضعت فيها شئ غريب وملفت للنظر!أريد ان أعلق على جدرانها صورة لمكان واحد من «٥٠ زاوية»، ذهبت أماكن كثيرة، و سافرت حول العالم بحثا فقط عن مصورين مبدعين، سافرت كل مكان، طلبت من أشهر المصورين، ان يفعلوا ذلك، ولم يفلح منهم أحد، و أنت اردتنى أن أكون ها هنا!انت الوحيد القادر على فعل ذلك، انت محترف والمقابل «ربع مليون يوان صينى»، نعم، مقابل ذلك المبلغ، لا تتعجب فقط أتصل بى على الرقم أسفل الكلام، ولكن تذكر لذلت اوسم مما اظهرتنى فى صورك».

تعجبت من تلك الرسالة، كيف عرف ؟!و متى اعطانى اياها؟!و لماذا كل هذا؟!و لماذا اردته؟!نعم كنت فى حاجة إلى المال فى ذلك الوقت لأكثر من سبب ولكن لم ابلغ احد بذلك الامر واحتفظت به لنفسى؟!ولكن رأيت أنها فرصة، ثم ذهبت إلى مكان، يعتبر من اروع الأماكن وأغربها واكثرها سحرا فى الصين يدعى»بوابة السماء»، تذكرت ذلك المكان فجاة والذى عرفنى اياه دكتور»سليمان» قائلا فى مرة من ذات المرات!

-هناك يا شارد اماكن على سطح ذلك الكوكب، و لكن تشعرك بانك فى حلم!

أنا فى ذلك الوقت متعجبا.

-أين تلك الأماكن؟!

ثم قال الدكتور «سليمان»انذاك فى هيام

-سافرت أماكن كثيرة يا «شارد»، و لكن من أغربها، مكان يدعى»بوابة السماء»!

-»بوابة السماء»!...يا له من أسم جميل سمعت عنه ..أعتقد أنه فى الصين!

-ان كان الأسم ساحر فالمكان «وهم كالأساطير»!

أنا فى تعجب ممزوج بالسرور

-لماذا؟؟!

دكتور «سليمان «يشرح لى مبتسما كانه يراه

-ذلك المكان يا شارد، برغم اننى قمت بزيارته فى صباى، إلا اننى لم أستطع نسيانه، و لا نسيان ذلك الشعور الرهيب الذى أصابنى، بأننى على جنة الله فى الأرض!.

قلت له مبتسما بلهفة

-اود الذهاب الى ذلك المكان !

دكتور سليمان مبتسما بحكمته المعتادة

-يوما ما يا «شارد»ستذهب له لكن، بعد ان تنساه ويمحى من ذاكرتك، ستذهب له بالصدفة، فتتذكره فجأة!

أنا فى ذلك الوقت متعجبا

-حقا!

و أنتهى الكلام فى ذلك الوقت بينى وبين الدكتور «سليمان»، وحقا محى من ذاكرتى ذلك المكان، وصدق وذهبت له صدفة، وتذكرته فجأة، يا الله، يا له من مكان يستحق ذلك الاسم، سبحان الله، ممر طويل ومموج يرتفع كلما أقتربت من البوابة، باخره جبل وفالجبل خضار، و فى ذلك الجبل فتحة ضخمة تشبه البوابة حقا ينبعث من خلالها رياح ليست كأى رياح!و تشم من خلالها رائحة كالرياحين، بوابة لاترى منها الا السماء!كأنها عين ترى بها الدنيا ببعد أخر!التقطت « ٥٠ صورة» لتلك البوابة من أكثر من زاوية بتركيز شديد جدا وإعجابا بتلك البوابة وبروح حماسية غريبة! ثم وبعد ان فرغت من التصوير، وقفت بالقرب من تلك البوابة، لأشاهد عظمة الخالق، و أبداعه، اى مصور هذا الذى يفوق ذلك المصور والمبدع، شعرت باننى فى عالم ثانى شعرت باننى فى زمن اخر، بل شعرت ان الزمن توقف أين أنا؟!شعرت وكأنى فى حلم، ما هذا هل حينما يصطدم الإنسان بمنظر غير مألوف له يشعر

بأختلاف الزمان والمكان، شعرت بأنى فى مكان أخر، برغم علمى بانه على الأرض، و لكن انذاك شعرت بانه»غير ارضى»!ثم مشيت، و لكن ظل ذلك المنظر «بوابة السماء»فى خيالى حتى الأن، هل يعقل أن الأرض بها جمال بهذه الروعة والسحر؟! صدقت يا دكتور»سليمان» فى وصفك ذلك الشعور، يا له من شعور!.

تلك هى الفرصة لأتصل ب»شانج شين»، لله عجائب فى شؤونه، لقد اخذت بالأسباب فى اشياء كثيرة وكانت الإجابة على تلك الأشياء فى طريق اخر لم اخذ فيه بالأسباب، كما لو انه ليس بيدى ما أملكه لنفسى!لأرى فى شؤون الله حكم وتدابير لا يعلمها الا هو، و لأعلم أننى مجرد إنسان فى ذلك الملاكوت اختبر فيما اتانى الله، فحياتى لم تسير برتابة وروتينية كسائر البشر أو كعبيد الإحسان، بل هى اشبه بالعاب الحظ، مليئة بالعجائب والالغاز، والمخاطر والمفاجئات، قد يكون يومى بسنة ولكن لحظتى بمائة سنة ولكن بعد كل تلك الدفعة لنفسى قلت لها «لا تفرحى» لعله بلاء، سنرى، لذلك امسكت بالهاتف وأتصلت بالسيد»شانج شين» قائلا له

-سيد»شانج شين»؟!..

عرفنى «شانج شين» بسرعة قائلا

-اهلا «شارد»..كنت فى انتظارك!

أنا فى تعجب

-كيف عرفت، اننى سأتصل؟!

فرد السيد»شانج شين» ببداهة

-لانك لن تضيع الفرصة!

-انت جد فيما قلت؟!

ضحك فى الهاتف ثم قال

-و لما أريد المزاح؟!

أكلم «شانج شين» وانا اقف امام «بوابة السماء» ويتملكنى سحرها قائلا

-اذا أنت صادق
ثم ضحك مرة اخرى قائلا
-ما المكان الذى صورته؟!
ظللت انظر إلى ما وراء البوابة فى سكر قائلا ل»شانج شين»
-أنت تعلم سيد»شانج»؟!
ثم سكت طويلا وقال لى بدهاء
-كما توقعت، صوت الرياح الذى يعبر كل الحدود من تلك الحلقة الصخرية، حتى يصلنى كالغذاء فى مكانى لأشم ما يوسع به مخيلتى!
ثم سالته لأتاكد برغم اننى علمت انه يعلم
-اتعلم اين انا حقا؟!..
«شانج شين» ضاحكا
-»بوابة السماء»..للقلوب الجريئة، التى لا تعرف الخوف...و انت لا تعرفه!أراك لا تخاف!
خفت من تلك الكلمة»أراك لا تخاف» كما لو أنه سهم يهبط من الأعلى ويصيب عنقى، شعرت فى تلك اللحظة بالخوف الحقيقى، الخوف من الله، فظللت صامتا، ثم قاطع صمتى»شانج شين «قائلا
-متى تعطنى الصور ؟!
-متى شئت!
ثم رد على مسرعا
-انظر خلفك..الأن!
انا ملتفتا مسرعا متعجبا قائلا
-سيد «شانج»!
ابتسم لى ثم قال
-كنت اعلم انك تريد الاتيان إلى هنا كما اردت أنا تلك المرة!
سكت طويلا «شانج شين» وأنا أيضا لا اتكلم فقط اسمع صوتان الرياح فى

obeikan.com

الصمت وصوت «شانج «الخافت قائلا بعد سكوت طويل!
- أتعلم!اصحاب القلوب الجريئة يأتون إلى ذلك المكان، و لكن لم يصل بعد إلى تلك النقطه من ذلك المكان، إلا «العابرون»، الذين يظنون انها «بوباة السماء»حقا، سمى»العابرون»، لأنهم عبروا أكثر من مرة وأتوا إلى ذلك المكان، قبل أن يكون وقبل ان يكونوا، حتى وصلوا إليه، انا وانت منهم!العابرون هم من كل حد وصوب، عرب واعاجم ومن كل الأجناس، هنا تسجل الاساطير الحقيقة، انظر إلى تلك البوابة!فسوف تعلم انك منهم، من العابرون، لتعلم المفاجأة، كيف لك أن تأخذ تلك البوابة صور من ٥٠ زاوية، أنظر لها مرة اخرى، فهذا من المستحيل!
ثم نظرت إليها فى تعجب وفى ذهول، حقا كيف لى ان فعلت ذلك، مستحيل!مستحيل، ثم نظرت إلى الصور مرة اخرى على ذاكرة «ألة التصوير»، فقلت لشانج شين فى حيرة وذهول!
-صحيح، كيف حدث ذلك؟، كما لو اننى ألتقط تلك الصور فى الحلم! كيف ذلك، انهم» ٥٠ صورة» من خمسون زاوية من جميع الإتجاهات، حقا يستحيل اخذهم الان!
ثم شعرت بذلك الاحساس مجددا أين انا؟!هل انا فى حلم ام حقيقة؟!أين الواقع واين الخيال؟!هل يوجد أكثر من أمر واقع؟!أم هل الواقع يتغير بالمكان والزمان والبشر إن أرادو جمال المنظر واللسان؟! أنا مدرك بانه ليس حلم، و لكن مدرك ايضا انه ليس واقع!
ثم رد»شانج شين»فى حكمة
-علمت الأن كيف عرفتك؟..يا شارد..اختيارى لك ليس عبث، و لكن ابصرت ابعد، مما قد تبصر به وتعرفه عن نفسك انت لم تعتمد على عيناك ويدك فى التصوير، إن التقاط الصور كان بحواس خارجة عن الطبيعة!أنا بحاجة لنتاج موهبتك، و انت فى حاجة لموهبتى!
انا فى ترقب قائلا

obeikan.com

-و ما موهبتك؟!

سكت شانج شين طويلا، ثم ابتسم قائلا!

-علمت عنك الكثير!و كنت الإجابة على شئ بداخلك، لا اريدك ان تفكر كثيرا فى امر لم يأن الأوان لمعرفته، و لكن إجابتى لبنة فى صرح ليس له اخر من اول، انت بحاجة بأن لا تنزع الشعرة من بين المفاهيم، احذر من تلك الشعرة، فهى كالصراط ما بين الجحيم والنعيم!ثم قلت له فى حيرة

-الشعرة!

ثم قال «شانج شين» بحدة

- قلت لك لا تسأل الأن؟!

أردت معرفة المزيد

-ماذا تعرف عنى؟!.

-انا لست عراف، ولكن موهوب من قوة خارجة عن الحدود لا يمنحها بشر لبشر، أنت صاحب إرادة قوية!

أنا أبتسم بسخرية من نفسى وأقول!

-أنا لست صاحب إرادة!

شانج شين مسرعا وبحدة نافيا ما أقول

-بلا، أنت صاحب ارادة، ماذا تظن فى الارادة، السعى وراء المال والشهره والجاه، كل تلك هبات، اكاذيب البشر أن يظن احد انه حقق ذلك بقدرته، صاحب الإرادة الحقيقية، هو من تخلى عن هواه أو على الأقل يسعى للتخلى عنه .

أنا مقاطعا اياه قائلا

-و لكننى لست كامل، لتجنب اهوائى كاملة!.

«شانج شين» يكمل حديثه قائلا

-و لكنك تكرهها، هناك من يتلذذ بطغيانه ولكن انت تكرهها، حتى ولو ظننت انك تحبها، و الكره لطغيان الذات كفيل بأن تكون صاحب ارادة.

ثم سكت «شانج شين»قليلا، ثم اخرج ظرف، بنى عليه أيقونة صينية، ثم قال

-ذلك هو المال، ربع مليون يوان!

أنا قائلا فى عجالة ووجهى عابس

-لا ..لا، أريد مالا كيف تريدنى ان اخذ مال بعد ذلك!

شانج شين قائلا لى فى حكمة

-أنت تستحقه، أسال نفسك بدلا ان ترفضه، لماذا اتيت إلى هنا؟!ولماذا حدث معك ذلك؟!، وهل انت الذى اردت ذلك كله ان يحدث أم أنا، ام أخرون، أم أرادة خارجة عن الحدود، خذ المال؟!.

أنا وبعد ان أخذته على استحياء قلت

-شكرا

ثم سكت قليلا «شانج شين»ثم قال فى ابتسامة

-على الأن ان اغادر؟!...لن اراك ثانيتا

-أنتظر خذ المال وعلمنى الحكمة!

شانج شين يبتسم مجددا قائلا

-للأسف انا لست مانح اياها، ليست بيدى!..ارحل وعد من حيث اتيت..و انت قوى لا تحتاج إلى أخذها منى!

-شكرا، على كل شئ!

ثم وضع شانج شين يديه على كتيفاى قائلا

-أنت من تستحق أن اشكرك..سلام

أنا فى ذهول انظر إلى ظرف ثم إلى بوابة السماء ثم اخيرا له قائلا

-شكرا سلام

ثم بعد ان غادر بمسافة ليست بالقليلة قال لى»شانج شين»بصوت عالى

-الشعرة..الشعرة يا شارد!

ثم اختفى بعدها، ثم وقفت عند تلك البوابة اتفكر فى كلام السيد»شانج شين»، صحيح، لا اعرف إلا الأن ما ديانته، لم احاول ان أسأله، ولكن كلامه به

أشياء كثيرة حكيمة، قوة الارادة، هو من يتحكم فى هواه، فالهوى كالفرس الغاضب، لبد وان تسطير عليه، فان سيطر هو سقطت أنت!و لكن الارادة ليست بيدى ايضا، لولا أن تكون هبة من الله، أو تكون مستمدة من الله بعد طلبها، والحكمة لا توهب الا من خلال الله، فى اى وقت لأى إنسان متى اراد الله!لكن كلانا نبغض الهوى وكلانا نؤمن بقوة خارجية عظمى تمنحنا قوة سهرى، حتى لو كل واحد منا مؤمن بإله أخر وله دين أخر، أما ذلك المال رزق اوتى لى من الله هنا فى تلك البلد من غير حساب..سبحان الله!ولكن لما اشعر بالخوف من تحذيره لشئ بداخلى يحول بين السعادة والسخط، الشعرة التى تفرق بين الصفات والمعانى، تلك الشعرة!و لكن فى النهاية»شانج شين»إنسان من الممكن أن يضيف لى ولكن لا يغيرنى، فالتغيرلا يقدر عليه الا الله، هو مقلب القلوب، لذلك من الممكن أن أكون لهذا فى نظره قوى، الا يكفى ان تعلم ان المدد من الله، وهذا ما اخافنى للحظات حينما شعرت انه ينسب لى قوة ليست بقواى برغم من أنه يعلم بالقوة الخارجية المانحة والسالبة، أما قوتى هى مجرد مدد من صاحب المدد!إن أرادها لى مكننى منها، ثم اتى وقت الرحيل، الرحيل ليس فقط من امام تلك البوابة، لكن من الصين، ذهبت إلى المطار واخذت معى المال، فركبت الطائرة، ناظرا إلى الصين من أعلى، و انا شاعر بالصدمة، شعرت أن كل ما حدث لى فى الصين من الوقت الذى دخلت فيها حتى خرجت كالحلم، و فى طرفة عين، هل الصدمة المفاجاة من الترحال من مكان إلى مكان يحدث ذلك الإحساس، لقد شعرت بأننى فى زمن الحداثة ولكنها ليست كتلك الحداثة، فهى مختلطة بسحر الاساطير، ثم سكر عقلى وانا فى الطائرة!

رأيتنى اصعد إلى تلك البوابة»بوابة السماء»، و انا اصعد إلى البوابة، كان شكلها اكثر سحر هى البوابة لكن ليست كما رايت اشعر وكأنها حقا فى السماء، رأيت روحى للمرة الثانية وهى تأخذ صور للبوابة بسرعة رهيبة، من جميع الزواية، أرى البرق والرعد، والرياح تصطحب رائحة المطر المعطرة

بالاشجار، ثم رايت الدكتور»سليمان« يقف على يمين البوابة مبتسما، ثم ذهبت لأقف بجانبه!ثم التفت لى قائلا!

-أنظر يا شارد الأن سترى «العابرون»، ستعرفهم ويعرفونك، ستراهم يمرون من «بوابة الأساطير»، على ركوبهم، يعبرون بقوة من خلال»بوابة السماء»!

ثم لأنظر فأرى بشر يلبسون كالفرسان والمحاربين القدامى، أشبه بالبشر العاديون الذين نراهم فى كل مكان فى ملامحهم، يركبون على وحوش أسطورية ذات أجنحة ضخمة، أراهم من بعيد كأنهم، فى «لوحة ملحمية»رسمت!يأتون نحونا يسرعون بقوة نحو البوابة، ينبعث من سرعة وحوشهم المجنحة رياح عاصفة، و كلما يمر احدهم يسلم على واسلم عليه، أعرفه بالأسم ويعرفنى، حتى نظر إلى دكتور «سليمان»، لكن وجهه كانه»شانج شين»، قائلا

-حان دورك يا شارد!

أنظر اليه قائلا

-كيف؟!

ثم يهز دكتور»سليمان»رأسه ميشرا إلى لأنظر ما وراء ظهرى قائلا!

-أنظر خلفك!

فأنظر خلفى لأرى وحشان قويان مجناحان يأتون نحونا بقوة، فأستقرينا كل واحد فينا على وحشه المجنح، ثم عبرت انا و«الدكتور سليمان» بقوة، حتى هبطنا على جنة ليست بوطنى ولكن ظننت أنها وطنى، ثم أختفى كل شئ فجاة على صوت قائد الطائرة، يبلغنا بالوصول إلى وطنى!ثم حينما وصلت إلى أرض الوطن شعرت، اننى كنت فى كوكب وزمن أخر، مكانان على وجه الارض ولكن شعرت بانهم كوكبان بزمانان مختلفا!كنت طوال تلك الفترة لا استخدم هاتفى المحمول، كان مغلقا ولا استخدم اى وسيلة من وسائل الاتصلات فى ذلك الوقت، و حينما فتحت هاتفى الشخصى، وجدت عدد من الاشعارت وهمية العدد من صديقى «هارون»، اردت ان أتصل به، لم اتم الأتصال به، حتى وجدته، هو الذى يتصل، و كالعادة مصرخا قائلا

-ايها المعتوه!

أنا مبتسما قائلا

-نعم..!

-سؤال يحرنى..لما تمسك بهاتف..طالما انك لا تستخدمه؟! ..لماذا؟!

أنا متجنبا السؤال قائلا!

-كيف حالك يا صاح؟!

«هارون «مرة أخرى

-كالعادة تهرب من السؤال!..لا يهم كيف حالك أنت يا صاح؟!

-الحمد لله

ثم طلب من «هارون» مقابلتى قائلا!

-يا صاح..اريد ان أراك!.

أنا ردا عليه

-و انا ايضا يا «هارون» عندى موضوع مهم جدا، أريد ان أتحدث معك فيه!

-ماهو؟!

رددت عليه قائلا

-حينما أراك!

-متى ؟؟ وأين؟؟

-على جبل المقطم الساعة الخامسة مناسب لك يا صاح؟!

-يا صاح فى اى وقت نتقابل..حسنا!

ثم انتهت المكالمة الهاتفية إلى هذا الحد، و ذهبت إلى البيت، و اخرجت اشيائى، من حقيبتى، و من ضمنها ساعة الرجل العجوز»نعمان» الرملية، التى لم اخرجها من حقيبة السفر مطلقا، و وضعت الظرف الذى اعطانى اياه»شانج شين» على مكتبى، ثم استحممت ونزلت مرة أخرى لمقابلة «هارون»على جبل المقطم ومعى «الة التصوير»و «ظرف المال» الذى أعطانى اياه»شانج شين» وكتاب عن «انواع فنون القتال الصينية واثرها على

obeikan.com

النفس « هدية ل»هارون»، فوصلت قبله وكنت أنظر الى الشمس وكانت قد بدأت فى الغروب، ثم رايت «هارون «و انا واقف على جبل المقطم، يجرى نحوى ثم يأخذ من الأرض «زلطة»، ليرمينى بها، و لكن يرميها بجانبى، قائلا بصريخ ضاحكا!.

-صديقى المعتوه شارد؟!

ثم أضحك من فعلته تلك قائلا!

-أيها الاحمق الابله

ثم يقترب «هارون «نحوى فتعانقنا مرحبا بى بعد غيابى، وسألنى قائلا!

-أود أن أعلم شئ واحد، أين كنت يا صاح؟ أين تختفى؟!قبل أى شئ، سلام عليكم

ثم أبتسمت قائلا

-و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الإجابة»الصين»!

هارون ظن اننى أمزح قائلا

-»الصين!لا تمزح، يا شارد!اين كنت حقا؟!

أنا مبتسما للمرة الثانية قائلا

-الصين، لا أمزح!الا تصدق، أنظر!

ثم اخرجت له «الة التصوير»، لأريه صورى فى الصين من على ذاكرة «الة التصوير»!ثم نظر «هارون»الا الصور كأنه لا يصدق، عيناه اتسعتى وهو ينظر إلى الصور، ثم نظر لى مرة أخرى، و قد ضيق عيناه، كما لو انه يريد التلفظ بكلمة غير لائقة أو سبة، و لكن قال لى بمعاتبة الاصدقاء الممزوجة بالمزاح!

-الصين!..الصين يا شارد!..لا أريد أن أسبك، أنت لا تعرف الصداقة!أقول لك شئ جديد، أنت لا تعرف الصداقة!

ثم أبتسمت مستفسرا فى مزاح أيضا

-لما يا صاح؟!
ثم قال لى بغيظ يصحبه المزاح وهو يهز رأسه
-تعرف فتيات من خلف ظهرى، بدونى، و تسافر إلى الصين بدونى، أين الصداقة؟!
أنا بابتسامة مستنكرا ومتعجبا مما يقول، قائلا له
-أى فتيات؟!
هارون بإبتسامة تملئها الخبث
-فتيات!
أنا تذكرت تلك الفتاة الجميلة قائلا له
-فتاة واحدة، تصبح فتيات، و انت تعلم أننى لا أعرف عنها شئ، يا صاح!
ثم حاولت أن أجعله ينسى أمر الفتاة الجميلة، مغيرا الكلام قائلا له!
-ألا تريد أن تعرف ما هذا الظرف الذى امسكه!
ثم رد «هارون» قائلا!
-تريد ان تنسينى موضوع الفتاة وسفرك إلى الصين، حسنا، و لكن صحيح، ماهذا الظرف، هدية لى أشكرك يا صاح، أشكرك من صميم قلبى!
ثم قلت ل»هارون»، حينما تذكرت الكتاب الذى أشتريته له هدية، فاعطيته اياه
-صحيح..يا هارون!..تلك هديتك»كتاب عن فنون القتال الصينية واثرها على النفس البشرية»، و لكن ذلك الظرف هو خص برحلتى الى الصين!
ثم شكرنى على الكتاب «هارون» وهو يمزح، ثم نظر الى الايقونة الصينية الملصقة على الظرف باستغراب محدق فيها قائلا!
-شكرا يا صاح على الكتاب، بالكتاب صور؟!هدية مقبولة، و لكن صحيح، ما علاقة هذا الظرف بسفرك الى إلصين؟!أن أرى انه ملصق بأيقونة صينية؟!... ماذا بداخله؟!
ثم قلت ل»هارون»، فجأة

-ربع مليون يوان صينى!
رايت على وجه»هارون «علامات التعجب، وظن اننى أمزح للمرة الثانية قائلا
-أنت تمزح يا صاح للمرة الثانية؟!
أنا ردا عليه
-هل قمت بالمزاح معك فى المرة الأولى، حتى امزح ثانيتا، أنظر !
فتحت جزء من الظرف ليرى «هارون»، انى لا أمزح، ثم رايت على وجهه علامات الذهول تزداد، قائلا وسائلا بأستغراب!
-اسف يا صاح، امزح معك، ولكن صحيح، من أين لك هذا يا شارد ؟!..ما قصة ذلك المال؟!
ثم وجدت علامات التشويق على وجه»هارون»لمعرفة ما حدث لى فى الصين وعن قصة هذا المال، فقمت بالرد على»هارون»قائلا!
-لا عليك..سأقص عليك قصة هذا المال!و ماحدث لى فى الصين!
«هارون» يحك يديه الاثناتين فى بعض، و عيناه تلمع فى تشويق!
-أخبرنى..قل لى يا صاح..كلى أذان صاغية!
ثم بدات أن أحكى ل»هارون»من بداية ما رأيت الأعلان عن «رحلة الصين»، و عندما ركبت الطائرة، و الشعور الذى انتبانى لأول مرة اركب فيها الطائرة وأنظر فيها للعالم من أعلى، ووصفت له شعورى حينما وصلت إلى الصين خارج المطار، وأنا لأول مرة لوحدى جسدا وروحا!و اننى ظننت ان تلك الرحلة ستكون من الأول إلى الاخر مليئة بالاسترخاء الروحى والفكرى، قصصت عليه ما حدث لى حينما ركبت القطار، وعلى «جوليت» و»ماركيوس»، و وصفتهم ل»هارون» وشعورى نحوهم، وصفت له الحلم والاهوال التى حدثت فى دقيقة واحدة فقط وقصصت عليه جزئية «نهر العسل»قائلا ل»هارون»بتركيز
-هارون، هل تذكر حينما قصصت لى رؤيتك فى حلمك ل»نهر من عسل»؟

فوجدت «هارون» بسرعة يهز راسه ويزداد تشويقه لمعرفة المزيد قائلا!
-نعم..نعم..مستحيل أن انسى ذلك المنظر وجماله وشعورى نحوه انذاك وشعورى حينما استيقظت!..لكن ما علاقة هذا برؤيتك؟!
ثم قصصت علية رؤياى قائلا!
-رأيت وجه «ماركيوس»يتبدل بوجهك وانت واقف عند»نهر العسل»، و كان ذلك النهر يكاد يكون اشبه بالنهر الذى رايته انت فى رؤياك! فى صفائه وفى لونه ولا اعلم !اين كانت بدايته ولا نهايته كما قلت!ثم صعدت انت إلى القطار، ولومتنى كما تلومنى الأن على اننى سافرت وحدى، ثم قلت لى»اشرب العسل»!
«هارون» مقاطعا اياى ضاحكا
-ارأيت يا صاح..ألومك حتى فى الحلم...
ثم عادت الجدية فى وجه»هارون» والتشويق قائلا
-لكن يالا غرابة الأحداث والأقدار، اكمل يا صاح..اكمل يا «شارد»..اسمعك؟!
-حسنا!
ثم بدات ان اكمل له الحلم، و عن ما حدث بعدما استيقظت، و الحوار الذى دار بينى وبين»ماركيوس»و «جوليت»، و عن الشعور الذى أنتابنى عنهم بعد النقاش وأن الحوار أنتهى فى سلام وشعورى عن نفسى والحيرة من صفة غامضة تتملكنى وعن السيد»شانج شين»، ثم قاطع «هارون» كلامى وعيناه ممتلئة بالعجبة قائلا
-من»شانج شين»؟!
-سأحكى لك يا صاح ولكن لا تقاطعنى!
-اسف ..حسنا..حسنا..اكمل ..اريد ان اعرف المزيد!
ثم بدأت أكمل، له ما حدث وطلب»شانج شين» منى بان اصوره، و عن انطباعى عنه فى المرة الأولى بأنه متعجرف، و عن الورقة التى وضعها فى جيبى دون ان اشعر، و فتحى اياها، و فيها طلب أن اصور له مكان واحد

٥٠ صورة من ٥٠ زاوية مقابل «ربع مليون يوان» لم يقاطعنى «هارون» حينما ذكرت المال هذا، و بدات اكمل له، قبولى العرض، و رحلتى إلى ذلك المكان الاسطورى الساحر»بوابة السماء»، و وصفت ل»هارون» وصف دقيق عن روعة ذلك المكان وسحره وغموضه، و قصصت عليه عن غرابة التقاطى لتلك الصور، و إنها من المستحيل باى شكل من الاشكال أن تلتقط تلك الصور لصعوبة اخذ المكان من اكثر من زاوية، و عن مفاجاتى بهذا الأمر بعد التقاطى للصور، و حينما اتى «شانج شين»و اعطانى المال، و اكتفيت بان اقص هذا القدر على «هارون»! قائلا له!

-هذا ماحدث؟!

قلت ل»هارون»هذا ما حدث، وليس هذا كله ماحدث!ثم رد على «هارون»فى حالة ذهول!

- يا الله، ما هذا؟!..عقلى لا يتحمل غرابة ما حدث لك والاقدار العجيبة!.. لا اصدق

اقول فى نفسى، ماذا تقول يا «هارون» لو علمت الاغرب من ذلك!ثم يسالنى «هارون»و هو ينظر إلى «ظرف المال» بذهول!

-معنى، ذلك ان من اعطاك ذلك المال، هو السيد»شانج شين»؟!

ثم ردت عليه مبتسما من حكمة الله

-بل الله أعطانى ذلك المال عن طريق ذلك الرجل..يا صاح انسيت المال مال الله!

ثم سالنى «هارون» قائلا

-صحيح.و ماذا انت فاعل به؟!

لم أفكر كثيرا لأننى كنت مقرر ما سأفعله.، فقلت ل»هارون»

-بجزء من هذا المال سنتشارك «انا» و«أنت» يا صاح فى مشروع، اما الباقى ساحتفظ به لنفسى!

«هارون» يقول ضاحكا بخبث

-حبيبى واخى يا صاح..ولكن باقى المال للتزوج به يا صاح!..و اين حق الله عليك..!

ثم ابتسمت قائلا فى سرى لنفسى، لما قلت أحتفظ» بباقى المال لنفسى»، كنت قاصدا باقى هذا المال كله لله، حتى المال الذى استثمره ما فائدته لو مكان لأبتغى به رضى الله، المال كله مال الله، ثم دعوته فى نفسى قائلا «اللهم ما اجعل ما افعله بالمال كله خالص لوجهك الكريم انت فقط»، ثم قطع «هارون»حديثى مع نفسى قائلا!

-يا صاح..اين انت..استيقظ؟!

أنا ردت عليه قائلا

-معك يا صاح؟!...المهم ساذهب الأن ولأكلمك مرة أخرى، عن المشروع!

ثم ابتسم «هارون» قائلا

-حسنا ..يا صاح ..وعد ستكلمنى يا صاح؟..لن تختفى!

ثم ردت عليه مبتسما أيضا!

-لا تقلق يا صاح!

و انتهت المقابلة عند هذا الحد، و بالرغم اننى حينما فكرت ان اشارك احد بالمشروع فكرت بان أشارك صديقى»هارون»، إلا أننى أحتفظ لنفسى بأشياء من ضمنها، ما قاله لى السيد»شانج شين»عن قصة» العابرون»و بان الصورالتقطت بحاسة خارج كل حواس الجسد، فإلى هذا الحد من الممكن ان يظن، باننى مجنون، فلكل إنسان منا جانب خفى يحتفظ به لنفسه، ليس لإثارة الغموض واجتذاب الأخرين نحتفظ به!و لكن هذا لأن لو تحدثنا عنه لن نفهم ابدا، و لن يفيد احدا ان يعرف عنه شئ سوى الندم، كما ندمت على اننى قصصت عليه جزء مماحدث، ليس لأنه قد يفشى سرا، و لكن لأننى لا أحب أن ارى فى عين شخص امامى، اننى قد اكذب او اننى مجنون !حتى لو كان صديقى، المهم أتصلت ب»هارون»بعد يومين من لقائنا بخصوص المشروع الذى اود وان افتحه قائلا ل»هارون»على الهاتف؟

-يا صاح ..السلام عليكم
رد «هارون»ضاحكا بسخرية
-لا ..أصدق..من «الكونت دى مونت»!..بنفسه...و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته
ثم ضحكت هلى ما قاله»هارون»كالعادة، قائلا له
-لا..»أمير الدهاء»..!
«هارون»و هو يضحك
-من؟!..»حسن الهلالى»..!
أنا ضاحكا مرة اخرى، ثم قلت له بعد ذلك فى جدية
-»امير الدهاء»و «الكونت دى مونت» واحد يا صاح..و لكن المهم الأن، سأكلمك بخصوص المشروع!
«هارون»مسرعا فى الرد
-اسمعك يا صاح!
و بدات أتناقش مع «هارون»عن المشروع، تحدثنا أكثر من ٤ ساعات عن طبيعته وكينونته، يضيف لى فكرة وأضف له، يعرض على رؤيته واعرض علية رؤيتى، يسألنى واجيبه والعكس، يعرض على مخاوفه وأعرض عليه مخاوفى تجاه المشروع ونخطط سويا، حتى فى النهاية اتفقنا على فكرة واحدة، قائلا لى»هارون»!
-اتفقنا!
ثم ردت عليه سريعا
-أتفقنا على بركة الله!
و بدأنا نتخذ الخطوات الجدية، لإخراج ذلك المشروع من نطاق التخطيط إلى عالم الواقع، و بدأ المشروع فى النجاح فى خلال فترة وجيزة لا تتجاوز»٦ أشهر»، لأنه اعتمد على أفكار جديدة وعلى القيم المضافة لتجعل نتائجه سريعة وملموسة، وفى خلال تلك الفترة تعرف»هارون»على فتاة وقرر أن

يخطبها، وفعلا ذهب لخطبتها قائلا»هارون»على أستحياء لى!

-يا صاح ..سأخبرك عن مفاجأة!

أنا فى أنتظار لمعرفة المفاجأة، قلت له مبتسما

-خبرنى..يا صاح

رد «هارون»سريعا

-قررت الزواج؟!

أنا فى سعادة واندهاش لمعرفة الخبر

-مبارك..يا صاح..مبارك يا»هارون»!...يا الله..كبرت يا صاح..و ستتزوج.. مبارك..و الله انه لشئ عجيب!

«هارون» ضاحكا

-لا عجب إلا من الشيطان..يا صهرى!

انا متعجبا قائلا له

-صهرك!..لماذا؟!

«هارون»يشوقنى قائلا

-تعلم من هى الفتاة التى اود خطبتها؟!

أنا مسرعا فى تعجب

-من؟!

-سأخطب أخت «حواء» !

أنا فى تعجب أسأله!

-من «حواء»؟!

-لن تصدق؟!...كم تدفع؟!

-أسرع وإلا أصمت

-لا يا صاح ...لا تغضب..»حواء»هى تلك الفتاة التى تعرفها، الفتاة الجميلة التى كانت دائما ما تسألنى عنك!و مازالت!

ثم بدأ «هارون»يحكى لى عن معرفته بتلك الفتاة أو أخت الفتاة الجميلة

obeikan.com

«حواء»، كل هذا ولم يحين وقت خطبة «هارون»على اخت»حواء»، ولكن اقترب معاد خطبته، اصبحنا أغنياء أنا و«هارون»، و أصبحت أقترب نحو عمر السبع وعشرون سنة، وبدا شعورى بأن تلك «الشعرة»أوشكت على أن تنزع، الشعرة التى حذرنى منها السيد»شانج شين»، ينتابنى شعور بالفخر بنفسى، شعور غريب يتسلل إلى نفسى، أو كما لو ان هذا الشعور، كان مختبئ فى نفسى، و بدأ الان فى اليقظة، قررت أن اذهب لشراء، هدية ل»هارون»و خطيبته، فذهبت إلى أحد أشهر محلات المجوهرات فى البلد، وأشتريت هدية ل»هارون» وخطيبته، و بعد أن اشتريت لهما هدية لفت نظرى خاتم، خاتم غريب، أود شرائه لى، وفى العادة لا أحب لبس أى شئ يقيد يدى، بدأ يقودنى شعور بالغموض والرغبة فى امتلاكى ذلك الخاتم، لا اعلم لماذا؟ّ!أخذت احدق فيه طويلا، كان الخاتم ذلك فضى، عبارة عن رأس وجسد»أسد» وتاج وذيل «طاووس»، فهو خاتم، جعلنى اشعر بالقوة والجمال وكل معانى الرغبة فى الوجود بقوة، أخذت أنظر إلى عينان الأسد، وأحدق فيهما، و اطيل النظر، حتى قاطع تركيزى صاحب محل المجوهرات قائلا لى بإبتسامة ودهاء تاجر قديم يعرف ذبونه من عيناه.

-رائع ..يا سيدى ذلك الخاتم ونادر ...و هو التحفة الوحيدة الموجودة عندى.. ولذلك قابل للغلو فى أي الوقت..و لكنه يليق بشاب مثلك!

أنا فى شعور بالفخر!

-شكرا..ولكن لا يهمنى سعره..أيا كان ثمنه!

و أشتريته برغم أنه كان غاليا، و لأول مرة اشعر منذ فترة طويلة باننى لا أستطيع ان اسيطر على نفسى، فرغبتى فى امتلاك ذلك الخاتم، كان اكبر من أن أسيطر على نفسى، شعرت ان ذلك الخاتم يشبهنى كثيرا أنذاك، لبست الخاتم فى أصبعى ثم أخذت أقبض يدى وأفردها بقوة، و انظر اليها بى عيناى مرة وفى المرأه مرة، وأشعر بقوة بذلك الخاتم، و كان باقى يومان على خطبة «هارون» لأخت «حواء»، وبينما انا اخذ النظر إلى الخاتم فى يدى فى المكان

الذى فتحت فيه المشروع وأنا جالس فى مكتبى، دخل»هارون»على فجأة ممسكا فى يده مستندات خاصة بالعمل، وانا ناظرا إلى الخاتم، بدون مبرر شعرت بقوة تدفعنى للتقليل من صديقى وأخى «هارون»، فنهرته بقوة ولا اعلم لماذا فعلت ذلك؟! لا أعلم، نهرته قائلا

-أيها الغبى..اطرق الباب قبل ان تدخل!..هل جننت!

هارون فى اندهاش من ردة فعلى، يظننى أمزح معه، قائلا بصوت مرتجف

-يا صاح...يا صاح...يا ..يا شارد..لم اقصد...تعودنا على أنه لا يوجد فرق بيننا ...نحن أخوة...انت تمزح!

انا وقد تملك الغضب اكثر منى وبدأت الحدة والغلظة فى نظراتى وفى صوتى!فقمت من مكانى منتفضا بقوة، أنهره مرة ثانية قائلا

-أنا لا أمزح معك..يا هارون!..يا غبى!

لا أعلم لماذا أخذت تلك ردة الفعل انذاك، لماذا كل هذا الغضب، لأول مرة أصبح سريع الغضب، لأول مرة أنهر «هارون» صديقى!لا أريد أن أتعصب عليه، شعرت ان هناك شخص أخر يدفعنى لفعل ذلك ليس أنا، و لكن لا استطيع جهاد ذلك الشخص أو تلك القوة الشريرة بداخلى، ثم بدأ «هارون»فى العصبية هو الأخر، فرمى المستندات بجانبه لترتطم بالحائط قائلا بعصبية لم اراها منه من قبل

-هل جننت يا أحمق!

«هارون» يعتبر جسده أقل واضعف منى نسبيا، لم أرى أمامى شيئا، تملكت منى تلك القوة الغاضبة الغامضة، التى جعلتنى أمسك «هارون»من عنقه وارفعه بقوة وعزم، ثم لأخبطه فى الحائط بوحشية وعنف، قائلا له بصوت أجش منخفض.

-نعم..جننت.. اغرب عن وجهى!

ثم تركت عنق»هارون»، فسقط على الأرض، أصاب هارون الذهول، فقام وهو يمشى نحو الباب، ببطئ وخذى، ثم نظر لى قائلا بصوت ضعيف جدا

obeikan.com

ومكتوم

-مستحيل ..مستحيل..أنت لست «شارد»؟!

و برغم ملامحى التى كانت تشبه الوحش او الشيطان الغاضب، حتى بعد معاتبة «هارون»، الا أننى من داخلى «شارد»سجين ذلك الشرير الذى ظهر فجأة، تركت «هارون» يمشى فى حزنه، يتملكنى كره وشرغير مبرر، ثم انظر إلى نفسى فى المرأه لأجد وجهى أحمر وتملأه العروق، ونظرة شيطانية فى عيناى، و شعور بالقوة والسحر من الخارج وشعور بالإنهيار من الداخل والضعف، وأسمع صوتان فى نفسى يقولان

الصوت الأول بخبث وشر يقول!

-انت هذا، انت شيطانى بطبعك!

الصوت الأخر بلوم ورجاء يقول!

-منذ متى كنت هذا الشيطان ..انت تكرهه!

ثم ذهبت إلى البيت غضبانا، ثم وجدت مرأه وقفت امامها مرة أخرى، أشاهد يدى وانا ارتدى فيها الخاتم الغامض أثناء غضبى، ثم انظر لوجهى مرة اخرى فى المرأه، متعجبا من نفسى، ومن مظهرى الشيطانى الجديد، معجب بنفسى لكن كارهها فى نفس الوقت، ثم نمت على سريرى بملابسى، من التعب، لا ابالى بأخى «هارون» المسكين، بعد جهاد مع شيطانى طويل لأصالح «هارون» ولكى لا أكون السبب فى حزنه، الذى أنتهى بهزيمتى، فلم اتصل ب»هارون» ونمت!رأيتنى و«هارون» فى المكتب ولكن ليس كالمكتب، كان شكله مظلم وكئيب وبارد، رأيت «هارون «، لا يتكلم حزين، ثم أتجه نحو الباب كما أتجه فى الحقيقة، و أغلق من خلفه الباب، ثم رأيته بعد ان أغلق الباب من وراء الجدران، كأن الباب شفاف، أو بمقدار لا يعلمه الا الله، رأيت وسمعت»هارون»من خلف الباب يقولى لى

-شكرا يا صاح

ثم ذهب» هارون» أبعد وأبعد عن رؤياى، شعرت باننى لابد، ان اذهب

obeikan.com

خلفه لأصالحه، فظللت اجرى خلفه وأجرى، برغم أننى أجرى خلفه، إلا أنه اختفى تماما من أمامى، شعرت فى نفسى بقوة تدفعنى نحوه تقول لى تلك القوة، أنه لذال أمامى، ولكنه ليس أمامى فى المكان، أنه شارع مظلم به ممرات كثيرة، حتى وجدت، نفسى فى مكتبى فى شركتى مرة أخرى، ولكن المكتب مختلف عن المرة ألأولى، فهوى فوق ربوة عالية جدا، كأنه فى ناطحة سحاب ثم، أقف عند شباك أشبه بالشرفة، أنظر تحتى، لأسمع فقط صوت أمرأة، أنتابنى من صوتها الذى لم اسمعه فى الحقيقة بأنها «أم هارون» تقول بهلع،

-هارون مات، أصطدم بسيارة !

وحينما سمعت صوت المرأة «ام هارون» تلك التى لم أراها، رأيت حينما تتكلم، «هارون»ترتطم به سيارة وتدهسه ليتساوى بالأرض كالعجين وأنا فى الأعلى، ثم سالت دمائه لتصنع بحر، ثم نزلت من الأعلى إلى الأسفل بطريقة غير معلومة لأقترب منه وأراه فى الأرض كالعجين عن قرب، وسط دمائه حافيا بلا حذاء فى قدماى، مشهد كان غاية فى عذاب النفس ولومها، ثم قمت فى هلع، وذعر، قمت ظللت أشرب أكثر من مرة مياه، و انا قائل

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

ثم اخذت هاتفى لأتصل ب»هارون»، فى هلع فرد على «هارون»فقلت له

-سامحينى يا»هارون»...سامحنى يا أخى!..هل أنت بخير؟!

«هارون» بصوت يملأه الحزن والسعادة فى نفس الوقت واللوم!

-شارد..أنت أخى...مستحيل ان أغضب منك...نعم بخير..ولكن ضربتك لى تؤلمنى!

أنا أقول ل»هارون» بصوت ألوم فيه نفسى

-أسف يا صاح..سامحنى!

«هارون»يريحنى ضاحكا

-أنتهى الأمر ..يا صاح..المسامح كريم!

شعرت بالسرور قائلا له

-الحمد لله..شكرا يا صاح..الأن أريد ان أقابلك فى شركتنا من جديد!

-حسنا ..سأذهب فى لمح البصر!

ثم ذهبت مسرعا إلى الشركة وانا أشعر براحة البال، ثم وصلت قبل «هارون»صديقى، و بينما أنا جالس على مكتبى، رن هاتفى الشخصى، نمرة عجيبة، أول مرة تتصل بى، ثم قمت من مكانى وأقتربت انظر من نافذة المكتب فاتحا هاتفى، لأسمع صوت أمرأة وقور وفيه دفئ تقول لى

-سلام عليكم ..يا شارد يا بنى، هل تعرفنى؟!

الصوت يشبه «ام هارون» فى الحلم، و هذا ما جعلنى أركز فى ذهول، فقلت لها

-حضرتك والدة «هارون»...وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!

فأبتسمت المراة فى الهاتف قائلة

-نعم ..يابنى!

ظننت انذاك أنها تتصل بى لتعاتبنى، من اجل ابنها وصديقى «هارون»، ولكننى لم أتكلم فأكملت كلامها وفجائتنى قائلة بسرور.

-انا أتصلت بك مخصوص، لأدعوك بنفسى لخطبة اخيك»هارون»، لقد حكى لى «هارون»عنك الكثير، و بانك أخ حقيقى له.

و بينما تتحدث معى «ام هارون»و انا واقف بجانب النافذة، رأيت «هارون» من خلال النافذة ينظر لى إلى أعلى وهو يعبر الشارع فى سرور، ثم تأتى سيارة مسرعة، تساوى بينه وبين الأرض، فتسيل دمائه، و «أم هارون» تحدثنى على الهاتف ولا أسمعها، وأنا عاجز فى خرس وذهول أنظر إلى «هارون» من أعلى، ثم أغمضت عيناى وفتحتها مرة أخرى، لعله كابوس، و لكنه ليس كابوس، لم استطع النطق، و ظلت «ام هارون»على الهاتف تقول

-شارد...بنى..شارد...شارد..اين أنت؟؟ ...يا بنى..أين أنت؟؟!

ظلت هكذا وأنا عاجز عن الكلام، ماذا أقول ل»أم هارون»، أقول لها ابنك

obeikan.com

«هارون»، أخى الذى تدعوننى إلى خطبته، مات أمامى، ماذا أقول؟ّ!لم ابلغها بشئ، ولا أعلم من أبلغها!لكن، لم أعلم أن اليوم الذى كان من المفترض فيه أن يبدأ»هارون»حياة جديدة، كان هو يوم إنتهائه من ذلك اللهو، كانت تلك المرة هى أول مرة أرى فيها»أم هارون»، رأيتها تبكى وجالسه حاضرة فى دفنة أبنها، حاضره ناظرة إلى المكان الذى سيؤى جسد «هارون» فى ظلمته، لم تقل لى أنها أمه، و لم اقل لها أننى «شارد»، فقط عرفنا بعضنا البعض، لم اكلمها ولم تكلمنى فقط نظرت إلى عيناها الباكية، و انا أكتم انفعالتى، لا أفعل شئ سوى أن أشعر بعبثية فعلى وموته، ثم انعزلت بعد الدفنة وحيدا، هاربا إلى جبل ذا ربوة عالية بعيدا عن الضجيج!اشعر اننى أصبحت فعلا وحيدا، أشعر بأننى السبب فى موته، أشعر بان الكرة تعود مرة أخرى، تلك اللحظة مألوفة لى، لا أصدق نفسى «هارون»مات، أقول لنفسى

-كيف هذا؟..أخى «هارون»مات؟؟...مستحيل؟؟.ماذا يعنى ذلك لن يتصل «هارون»يلومنى ضاحكا على بعدى وأختفائى!..ماهذا ؟!..لبد واننى فى كبوس!

وبينما انا واقف على قمة الجبل أشاهد وانظر إلى العالم فقط ولا اسمع صوته!أرفع يداى لأنظر إلى تفاصيل الخاتم، يزداد بريقا فى يدى، انظر إلى عينان الاسد وذيل الطاووس، لأشعر بذلك الأحساس يتملكنى من جديد، اشعور بأن الشعرة على وشك ان تنزع تماما!أشعر بالجوع الشديد، أشعر برغبة جامحة فى العيش فى نفس الوقت الذى اشعر فيه اننى مجرم بلا أحساس، ذهبت إلى البيت هذبت من منظرى واستحممت وارتديت افخم ما عندى، ثم نظرت فجأة إلى صورة أمى المتوفاة وأحدق وأسرح فى موتها لم تمت من بعيد بل من زمن قريب، ولكن أريد أن أتناسى موتها، فقط تتحول عيناى كقطعتان من الكرستال فى أشد اللمعان، دموع باردة لاتنزل!ثم أنتهيت من النظر إلى صورة أمى، فنزلت فى حزن بقلب ميت إلى أغلى مطعم فى البلد، و عند دخولى، إلى ذلك المطعم الفخم، قبلت بترحاب شديد من

العاملين فى المطعم، كما لو أننى ملك، ثم وجدت مرأه على شمالى، فوقفت امامها ونظرت فيها، اجد نفسى ملكا، ثم أجلس على أفخم طاولة لوحدى محجوبا عن الرؤية، إلا ان طاولة واحدة، يجلس عليها رجل يبدو عليه الثراء الفاحش وعجوز جدا، وجهه ممتلئ بالتجاعيد، جفنه ساقط على عيناه وحجباه خفيفان ومرتفعان إلى أعلى كالشيطان العجوز، عيناه شاحبة اللون، ويحتسى الخمر وحيدا بمفرده، ينظر إلى نظرة حقد وفخر، كما لو أننى أرى الجحيم فى عيناه والشرر، ينظر لى كما لو انه يحقد على شبابى، حيث شعرت بانه خصم وندا لى، ثم جاء احد العاملين بالمطعم قائلا لى!

-اهلا وسهلا..يا سيدى..المكان يشع نور بوجودك، ماذا تحب ان تطلب؟!

ثم طلبت العشاء وغادر العامل، ثم ميل ذلك الرجل العجوز راسه يسارا بغرور نظرا إلى خاتمى ذاته، ذلك الخاتم الذى حينما اشتريته لم اخلعه من يدى كما لو انه روحى، ثم ابتسم ذلك العجوز الثرى ابتسامة ماكرة خبيثة وملعونة، ثم أحتدت النظرات بيننا كما لو أننا نتبادل ونتنافس، من الذى سوف يخرج كمية من الشرر اكثر؟؟!.. من عيناه، من منا هو الخصم أقوى؟؟...ثم اعاد رأسه مره اخرى مستقيمه، ظللنا نتبادل الشرر، حتى اغمضنا أعيوننا فى نفس الوقت وفجأة!.

رأيتنى اصعد على سلم طويل وعريض جدا، محاط بأشجار ذات أخشاب سوداء، رؤوسها كرؤوس الشياطين، أشجار ميتة بلا أوراق، متشابكة الفرويعات أصعد، أظل أصعد، أنتابنى احسا س أنها «OTree»، المكان المفضل لدى دكتور «سليمان»، لكن انتبنى فى نفس الوقت بانه هو المكان ولكن بعد نهاية التاريخ، ظللت اصعد، و اصعد، حتى أرى من بعيد بوابة، تطل على الجحيم الأسود»نيران سوداء»، لا أعرف كيف؟!، شعرت انذاك بالرهبة وبالخوف، ثم رأيت رجل من بعيد بجانب البوابة، جالس على صخرة واضع يداه على وجهه لكننى استطيع تحديد ملامحه، أنتابنى شعور بأن تلك البوابة هى «بوابة السماء»، و لكن قائمة بذاتها، لم يخطر ببالى

أنها التى بالصين، ثم بدات أن اقترب من الرجل الجالس على الصخرة، و ملامحه من بعيد تتبدل فى أقل من طرفة عين، من اكثر من ذاوية، ما بين الدكتور»سليمان»و «العجوز الثرى»!كل هذا وهو يضع يديه على وجهه، ثم واقفت أمام ذلك الرجل بمسافة ليست بالقليلة، بعدما استقر على وجه دكتور «سليمان» وروح ونظرة عين» الرجل الثرى»!كل هذا بجانب بوابة الجحيم، شعرت نفسيا باننى مشتت ما بين عدم الارتياح والبغض تجاه ذلك الرجل لأنه»العجوزالثرى» وتارة أخرى بالأرتياح والتساهل لكونه «دكتور سليمان»، جلست على صخرة تبعد عنه قليلا ولكن بالقرب من «بوابة الجحيم»، لدرجة أننى حينما جلست على الصخرة نظرت نظرة فى الجحيم وقبل أن اتكلم معه، لكن حين بدانا بالكلام شعرت بالخبث والمكر من كلانا، ثم انزل الرجل يداه من على وجهه، نظرا إلى قائلا، بلا مقدمات.

-تلوم نفسك يا شارد، على قتل «هارون»؟!

ثم نظرت اليه قائلا فى عدم ارتياح

-لم اقتله!..بل قتلته..لكن بلا ذنب !..لقد تشاجرنا..ثم صلحته..قبل ان يموت!..أعلم اننى تاخرت فى الأعتذار، لكن هذا كافى على اننى أنا القاتل!

قلت»اننى أنا القاتل» بلسانى، أشعر باننى القاتل ولست القاتل فى نفس الوقت، أشعر باننى ليس لى على لسانى سلطان، اشعر بما سوف يقوله ذلك الرجل على قبل ان يقوله، أشعر بانه يزرع فى نفسى الخوف والشعور بالذنب، ولكن لا اعلم ما يمنعنى عن الكلام، و لكن فجأنى»الرجل» برغم توقعى بقوله بخبث!

-انت لست القاتل ..هل التأخير جريمة كلنا نتأخر..و لكن لنا يوم نعود فيه.. عن ما نحن عليه!

أنا ازدت حيرة وصعوبة فى فهم ما يقول، و لكن اشعر بتوقع شئ لا أعرفه، سوف يقوله، فقال ذلك»الرجل» بصوت هادئ

-لماذا غضبت اصلا يا شارد؟!

لم أستطع الرد، عجزت عن النطق، شعرت بان صوتى محبوس، أشعر بانه يزرع فى نفسى شئ من الخوف للمرة الثانية، ثم بدأ الرجل فى النظر إلى ووجهه كوجه دكتور»سليمان»، عيناه عين ذلك»العجوز الثرى»، نظرته نظره»الشيطان»!قائلا بصوت هادئ ماكر.

-لن تستطيع الكلام»يا شارد»، إلا بعد ان اذن لك، حلو ذلك الخاتم!

أردت أن أتكلم ولم أستطع، و لكن تعجبت من عدم ارتياحى لأول مرة للدكتور «سليمان»الكائن مع تلك الكيانات فى ذلك الرجل، ولكن اكمل حديثه فى هدوء ومكر ويتبدل وجهه، ما بين «الدكتور سليمان»و «الرجل العجوز»و لكن الشئ الثابت فيهم هو نظرة» الشيطان» قائلا!

وجه «العجوز الثرى»:لا تتكلم..يابنى !...أسمع..هل يوجد مبرر لغضبك؟!

يرد على نفسه بوجه الدكتور» سليمان»

وجه»الدكتور سليمان»:لا ..لا يوجد مبرر..سوى أنك أردت أن تغضب، أحببت أن تغضب!..أشتهيت الغضب!..أشتهيت أن تكون كالخاتم الذى تلبسه..

يسأل بتعجب فى وجه «الثرى»قائلا بصوت أعلى قليلا

وجه «العجوز الثرى»:و ماذا يعنى هذا؟!

يرد فى وجه «الدكتور سليمان» قائلا بصوت هادئ يشبه فحيح الأفعة!

وجه»الدكتور سليمان»:نقول مرة أخرى، هذا يعنى أن السبب فى موت «هارون»، الحقيقى، هو أنك أشتهيت الغضب، و التلذذ بالكبر، التباطؤ فى الأعتذار، تعلم الما أدى ذلك؟!

يسأل مرة اخرى بتعجب فى وجه»العجوز الثرى»مبتسما بخبث قائلا!

وجه»العجوز الثرى»:الما أدى ذلك؟!

قام الرجل منتفضا من مكانه قائلا بذلك الصوت الخبيث، بوجه»دكتور سليمان»رافعا ذراعه بقوة أمامه بذاوية ٩٠ درجة، رافعا أصبعة السبابة!

-أدى الى «اللحظة الفارقة»، نعم اللحظة التى غضبت فيها، بعدها تفارقتما، و بعد ان تفرقتما وذهب كل واحد منكما إلى حاله، غادرت أنت إلى البيت،

فتكاسلت ونمت، ثم قمت، فأعتذرت، فطلبت منه ان يعود إلى الشركة مرة أخرى، لتستمتع بنظرة «هارون»الذليل، المسكين»هارون»شعر بفرحة بعد حزن، حينما شعر بالرضى من سيده، فأتى مسرعا، فخبطته السيارة فسالت دمائه، نعم أنت شعرت بانه عبد عندك، أستعبدته، لأنك شعرت بالقوة والدهاء، شعرت بمتعة ان تقود شخص بارادته، نعم هذا شعور رهيب، انا أكثر واحد أعلمه!أردت رمز ليبرز قواك فاخترت ذلك الرمز، لكن أعلم أنت أثير لهذا الرمز، كما أنت أثير لى!المفاجأة الأكبر، هى أنك اعتذرت عن غضبك فسامحك «هارون»لذلك أنت غير مذنب، و لكن أنت الذى طلبت مجيئه بسرعة إلى الشركة، وهذا يعنى أن ذلك الطلب، هو سبب موته اى فى كلت الحالات أنت مذنب!..و انت من تتحمل نتيجة جريمتك..وهذا يعنى انه ليس فارق، ان كان الغضب أو الكسل أو الكبر أوالغباء أو الطلب أو اى شئ أخر، أنت مذنب على اى حال.. يابنى..

ثم قال فى وجه»العجوز الثرى»فجأة، وهو قد أقترب وجهه من وجهى وجه «العجوز الثرى»:و ما ذنب «هارون» المسكين؟!...و «شارد»المسكين؟!.. فى كل هذا!

فرد بخبث بوجه»الدكتورسليمان» وقد أصبحت ملامح دكتور»سليمان»أقرب إلى ملامح الشيطان!

-وما ذنبى فى كل هذا؟!كلنا ساوسية، أنا وهارون وانت يا شارد!...من الذى جعلنا هكذا من أتى بنا إلى هنا، من وضعنا فى ذلك الاختيار الصعب وأنشأنا فيما لا نعلم، و سيرنا إلى ما لا نعرف!

ثم بصوت أكثر هدوء ومكر بوجه»الدكتور سليمان» الشيطانى للمرة الثانية

-قل لى؟!..

ثم جرى على هيئته عند شجرة ضخمة سوداء يابسة، لا أعلم من اين اتت؟!ثم دخل من وراءها، فالتف حولها كالافعى، حتى برز نصف جسده فى هيئة شيطان، فتدلى من فوقها بغرور، و صدق ما كنت اخاف ان يكون

! ففى كل لحظة هو يتكلم بها، يزداد يقينى بانه «الشيطان»، برغم اننى الا حد ذلك الوقت لا استطيع النطق الا بعدما قال «الشيطان»و هو ملتف حول الشجرة بغرور!

-الشعرة نزعت تماما، و انتهت اللعبة، و النتيجة خسارتنا، وقضى الامر..لتعلم اننى الأقوى

ثم شعرت بقوة تنتبنى، قوة خفية مخلصة، قوة الخوف من ان تكون تلك هى النهاية، قوة الخوف من ان اتساوى مع من عصى ربه عمدا، صرخت بعدما كان صوتى محبوس بصوت عالى قائلا له

-لا...لا...لا لست مثلك..و لن اكون مثلك..أبدا.

ثم شعرت بانه بدا أن يخاف، ظهرت ملامح الهلع على وجهه قائلا

- ماذا؟؟.ما هذاّ؟!..هذا مستحيل!

ثم قلت له بقوة وثبات

-لم تنتهى اللعبة بعد، لست مغلوب على امرك !..انت من فعلت ذلك بنفسك..تردها عبثية، و لكنك لم تظلم، اتعلم ما الفارق مابينك وبين الملائكة، هم سألوا الله، هل تجعل من يقتل ويسفك فى الارض خليفة لك؟!..اولم يتعجبوا من حكمة الله، بلا تعجبوا، هل ادخلهم الله جهنم على اعتراضهم لا، بل هوالحليم الصبورالحكيم والخبير العليم، علمهم ما لا يعلمون، فقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، علموا قدر نفسهم، و علموا أن الخالق لا يتساوى مع المخلوق، و الصانع لا يتساوى مع المصنوع، فالصانع محيط بما لم يحط به المصنوع عن نفسه، أما أنت فتجاهلت ذلك ظننت أن النار اخير من الطين وابيت السجود، و غفلت على أن داخل تلك الطينة روح من خالقك!بعد ان سوى الله بشر نفخ فيه من روحه، و الاكبر من ذلك انك لم تندم على معصية الخالق كما ندموا الملائكة على السؤال، هل حاولت أن تتوب، الإجابة لا، و الله يغفر لمن يتوب، بل أخذته ند لك وتحديت الله من خلقك وتماديت إلى انك تريد أن تفتن نسل ذلك البشرى باللعب والرقص

obeikan.com

على أحزانهم، فانت لا تشعر بالذنب لا تشعر الا بانك الأعلى فلا يعجبك فى ان تسجد لشئ ظاهره ارضى وباطنه «غير ارضى»، العجب كل العجب لمن لم يشعر بمن عصى، بل تفنن فى عصيانه، انت ابيت واستكبرت..اذهب إلى الجحيم الاسود!

ثم التقمته الجحيم وهو يصرخ، و قمت على صوت «الرجل الثرى»و هو يصرخ وينظر لى ومقلاتاه بارزتان كالمخنوق بحبال من نار ووجهه احمر ويتعرق ويلتقط انفاسه الاخيرة قائلا

العجوز الثرى:مياه، مياه، اشعر بنيران داخلى!...إنى أحترق

لم يسعفه احد فقط مات مرتطما وجهه على الطاولة، و برغم ان الحلم انتهى على خير، إلا اننى لا زلت افكر، و اشعر بالذنب من ما قاله لى الشيطان فى الحلم، و لكن ما خطر على بالى فى تلك اللحظة الدكتور»سليمان»، ذهبت مسرعا إلى عيادته، فهو الشخص الاخير الذى اثق به بعد الخال «حكيم»و «هارون»، وحينما صعدت إلى عيادته .و جدت باب العيادة مفتوح ولا يوجد بها احد إلا السيدة»نرجس»قائلا لها

-السلام عليكم ...تتذكرينى

السيدة «نرجس «ترد قائلة

-و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا بنى، طبعا أنت «شارد»..!

-الحمد لله على أنك تذكرتينى..!اين الدكتور سليمان؟!

السيدة «نرجس» تنظر فى الارض بحزن ثم تنظر لى! قائلة لى بحزن

-الدكتور «سليمان»ترك العيادة لصديقه، و هاجر!

انا مندهشا

-إلى أين؟!

ارتبكت ثم ابتسمت «نرجس» قائلة

-لا اعلم..لكنه ترك لك جواب ..يا بنى!

انا فى تعجب قائلا

-جواب

ثم اعطتنى الجواب، ثم شكرتها وخرجت من العيادة فاتحا الظرف لأرى ما فى الجواب..

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السابع
«لتحرق الأسطورة الأخيرة»

فتحت الجواب ناظرا فيه فرأيت الدكتور «سليمان»قائلا فيه

-عزيزى «شارد»، كل إنسان منا يعيش فى غربته، و لكن هناك من قدره هو الوحدة والغربة، ليست بإختيار!و أنت منهم، لا تستطيع التنفس إلا وأنت وحيد، هذا قدرك، كم مرة حييت؟!كم مرة مت ؟، كم وطن.., بل كم عالم سافرت ؟، أنظر حولك إلى المبانى الشاهقة، إلى السيارات الفارهة، إلى البشر وما يلبسون، إلى الطائرات، إلى كل ماحولك، حتى إلى أنا!، تعلم !كل تلك الأشياء وهم، عاد ذلك «الوهم» هو الحق والصدق..ولكن تعلم يا بنى!رأيت فيك «ملاحم»!عواصف، ثورات وراء هدوءك، ولكنك تثور كل»صبار»، الصبار الذى ينمو وحيدا بدون تدخل بشرى، يتحمل العطش طويلا، ومن يحاول أن يلمس أشواكه، لا يشعر بشئ إلا بتصارع ضربات قلبه والهبوط الحاد فيرى الدماء تملأ يداه، شوك الصبار الحاد الذى يغرس فى اللحم بلطف، ليدميها فى سكون، »شارد» أعلم إنك أصبحت وحيدا حقا، لكن أعلم، أن قبح الوحدة ليست فى بعدك عن الضجيج، بل قبحها فى بعدك عن الله وليس عن العالم، ف»الصبار» بعيد عن البشر ولكن مع الله.

ثم إبتسمت بشعور فيه السعادة ممزوجة بالشقاء والحيرة، قائلا لنفسى!
-الخال حكيم، أمى، هارون، دكتور سليمان، ذهب الطيبون ولم يبقى إلا الخبث، ظاهره وباطنه.
و فى ذلك الوقت شعرت بالمعنى الحقيقى «للغربة»، غربة إختفاء كل من على شكلتى، تمر الأيام منهمكا فى أعمالى، أتقدم ولكن أحيانا هربا من الواقع، أرى ما أفعله فى إزدهار، و لكن يخيم عليه الحزن، ما زلت محتفظ ب»الخاتم» انظر له، و يعطنى القوة والاعتزاز، و لكن ظاهريا، أما بالداخل حزن شديد!و العجبة أننى فى ذلك الوقت لم أخلعه من أصبعى حتى تفكيرا، وفى يوم من ذات الأيام وأنا بخارج شركتى!رأيت منظرا استفزنى !رأيت شاب فتى يضرب شاب أضعف منه فى البنية ومن ذوى الإحتياجات الخاصة بقوة بالعصى وأصحاب ذلك الشاب الفتى فى اختلاف ما بين ما يمنعه بالكلمة ومن يضحك على الشاب الضعيف ويسخر، ومنهم من ينظر فى صمت والشاب الضعيف يتألم ويبكى فى صراخ، ثم بدأت أشعر بما يدفعنى إلى إجتياز الشارع لأخلص ذلك الضعيف من يد ذلك الفتى قليل العقل والدين!وفى محاولة لرفع أذى ذلك الظالم عن المظلوم بالقوة، رأيت شخص من أصحاب الفتى الظالم يقول :
-دعنا نضحك !
أنا نظرت له بإستغراب ولم أكترث لكلامه، ماضيى فى محاولة رفع بطش ذلك الشاب عن ذالك المظلوم، حتى ابتعد ذلك الظالم قليلا إلى الوراء ثم قال
-ألم تسمع ما يقول لك دعنا نضحك؟!
ثم بطحنى على رأسى بطحتا قوية لأشعر بعدها بأن كل ما أراه حولى من مشاهد بلون الدم ورائحته!لا أرى شيئا ولكن أسمع صدى أصوات من بعيد تقول
-دعوه...اهربوا !
-أنقذوه إنه...يموت !

obeikan.com

ثم إختفت جميع الأصوات ورأيتنى خفيف وشفاف فجأة من بعيد أرى جسدى محمولاعلى خشبه مسطحه يرفعها شيئان على أكتافهم، أشكالهم غريبة غير مألوفة غير البشر لا أعرف هل هما أخيار أم أشرار؟!لكن رميت بقوة من قبلهم على سطح من حديد، و برغم من أننى كنت أرانى فى ذلك المشهد ميتا الا أننى شعرت بقوة الأصطدام وببرودة ذلك المسطح الحديدى الذى رمي جسدى فوقه، و كانت روحى التى ترى جسدى مرتميا على السطح الحديدى تنكر موتى وتتألم وتشعر بأى شئ يصيب جسدى برغم فراقهم عن بعضهم البعض، أشعر ببرودة المياه التى يصبونها على، و أننى ورد فى نفسى أننى أغسل بعد موتى، ثم زحزوا الشيئان جسدى إلى أعلى حتى أصبحت رأسى متدلية إلى الوراء أو إلى أسفل وباقى جسدى على السطح الحديدى، ولا أعلم كيف التحمت روحى بجسدى فجأة لأرى كل ما حولى معكوس، و مع ذلك ورد فى نفسى أننى مازلت ميتا حتى، رأيت أحد الشيئان يأتى مسرعا ممسكا بسيف ليضرب به رأسى وأنا لا استطيع أن اتحرك، ولكن فى خوف وهلع اقول

-لا..لا

بصوت مخنوق لا يسمعه أحد إلا أنا لا يستطيع العبور من خلال جسدى المادى!

ثم لم أشعر بتلك الضربة من السيف إلا و» كأنها كالشعاش الواحد الذى يينبعث من الشمس فى نهار الصيف»، أى كانت الضربة دافئة مثل شعاع الشمس، بمعنى أننى شعرت بها ولكن غير موجعة!، إختلفت مقايس الاحساس بمفهوم طعنة السيف،، ثم أختفى الشيئان، ومازالت رأسى فى مكانها فى مشهد أخر ولا زلت نائما على ظهرى فوق ذلك السطح الحديدى لأرى أهوال!رأيت فى لحظة ليست بالفجر او المغرب، ليست نهارا ولا ليلا، ولكن أستطيع أن أرى الأشياء بوضوح فى الضوء ولكنه ضوء غير ضوء الشمس والقمر !أنه ضوء كواكب تشرق وكواكب أخرى تغرب أراها أكبر حجما من

رؤية الشمس فى الحقيقة، أراها كما أرى خيال الجبال التى تشرق من خلفها الشمس، أو كالقمر المكتمل الذى يظهر فى السماء مع قرب المغرب، ومن شدة الأهوال التى أراها قمت فزعا حيا، هاربا من هول ما أراه ولكن ما الفائدة، فإننى أهرب من عالم هو الذى يسيطر على بمقايسه، و ما زالت الكواكب تشرق وتغرب، حتى وصلت إلى حافة نهاية العالم !.

فأنا على أرض ليست بكروية فى مكان «غير أرضى»، تلك الحافة تطل على سموات غير السموات، على عالم ساحر من السموات المختلفة والكواكب ليست كالكواكب، أشم رائحة نسيم ليست كالنسيم، أقف مذهول لرؤيته ما بين الخوف من هول المشهد والسعادة لجماله، نجوم ليست نجوم بل أرواح بشر تضئ وتصعد إلى ما لا نهاية، لأرتمى بنفسى فى مجال ذلك العالم الساحر، حتى افيق على صوت رجل يقول

-الحمد لله ..!

أفتح عينى وأشعر كأننى أخرج من ذلك العالم الساحر كما إننى لو كنت أطل على نافذة مابين، خروجى من عالم الخيال إلى عالم الأمر الواقع لأرى أمامى رجل يبدو أنه طبيب وبجانبه ممرضة فى غرفة فى مستشفى ولكن ليس بكامل الوضوح، حتى بدى الحلم كالسراب وأختفى، لأرى الطبيب والممرضة فى غاية الوضوح، ثم انظر إلى الطبيب كالطفل الذى ولد من جديد، فيكرر الطبيب قائلا

-الحمد لله لقد نجوت بأعجوبة..

أنا فى ذهول

-ماذا حدث؟!

-أتيت وظن الناس الذين يحملونك إنك مت من كثرة الدماء وفقدانك للوعى!..الحمد لله على سلامتك سندعك الأن لترتاح.

-شكرا..الحمدلله.

مر أكثر من يوم وأنا فى المستشفى وبدأت اتعافى قليلا بفضل الله، وبقى يوم

على خروجى من المستشفى، يطرق على الباب وأنا جالس على الكرسى إذا بالممرضة تدخل مبتسمة قائلة

-يا سيدى لقد نسيت أن أعطيك خاتمك فقد نزعناه منك أثناء العملية.

ثم أخرجته من جيبها قائلة

-تفضل!

-شكرا

-بعد إذنك

ثم غادرت الممرضة الغرفة، وفى اليوم الأخير لى فى المستشفى ذهبت إلى مراة موجودة بداخل الغرفة، لألبس ملابسى، و أرتدى الخاتم فى أصبعى وأقبض يدى وأفردها ناظرا إلى الخاتم، ولكن تلك المرة فى شك فيه، بدأت أشعر نحوه بالأختناق، لكن ما زلت أرتديه، حتى دخلت الممرضة فى ذهول وأنا ناظرا إلى المراه، قائلة فى إندهاش

-عفوا، سيدى هناك شخص يريد مقابلتك.

لم أسألها عن سبب اندهاشها، لكن قلت لها

-دعيه يدخل.

ثم نظرت إلى النفسى فى المراة مرة أخرى، و رأيتها تدخل على مرة أخرى ومعها الضيف الذى التفت مسرعا حينما رأيته فى المرأة، و علمت لماذا كانت الممرضة مندهشة، دخل الضيف قائلا

-السلام عليكم

أنه رجل يشبهننى بطريقة مخيفة، إنه أنا، ثم قلت له فى ذهول

-وعليكم السلام ..مستحيل ..من أنت؟!

«الضيف «بإبتسامة عبثية!

-ما هو المستحيل؟!

-أن يكون هناك شخص يشبهنى إلى تلك الدرجة المخيفة.

ثم ضحك قائلا

- أريدك فى شئ مهم !..
ثم نظر إلى الشرفة التى تطل على منظر طبيعى خلاب، محيط بالمستشفى، قائلا
-هل من الممكن أن نتكلم فى الشرفة!
أنا فى ذهول متفقدا ملامحه، و فى الشئ المجهول الذى يريد أن يحدثنى فيه، قلت له
-تفضل!
ثم دخلنا فى الشرفة، ثم نظر لى بجدية وبعد صمت يخيم على الأجواء، قال
-تظن أنك أصبحت منتصرا؟
تعجبت من السؤال قائلا
-إنتصرت...إنتصرت على من؟؟
الضيف إبتسم بدهاء ثم قال
-على الكثير!
إزداد تعجبى فقلت
-على الكثير؟؟
أبتسم بدهاء مرة أخرى محدقا إلى وبتحديق العارف بخباياى قائلا
-تظن أنك منتصرا، لكن الحقيقة أنت لم تنتصر بعد !
أنا فى تعجب وحيرة
-ماذا تقصد لا أفهم كلامك؟!
استمر الضيف فى الكلام قائلا
-تظن أن الإنتصار هو بالحجة أمام الحجة، هو الإنتصار على من حولك وما حولك، على من هم خارجك!.
ثم سكت الضيف برهة ثم أكمل
-تعلم!...الباطل لو جمعت له حجج الدنيا والأخرة يظل باطل، الحجة أنذاك تكون بمثابة «المسكن للألام لكن لن يزول الألم، أما الحق بطبيعته ظاهر لا

obeikan.com

يحتاج لدليل!
أنا فى حيرة ولكن وقر فى نفسى أنه يريد أن يقول لى على شئ بداخلى أو يعلم ما يخيفنى
-لماذا تقول لى هذا؟!
يعاود النظر إلى فى صمت وتحديق ثم يقول
-الإنتصار الحقيقى هو أن تمكث أطول فترة ممكنة صامدا أمام الخبث فى صمت، وأن تمضى فى هدوء نحو ما تريد، حتى تصل إليه بالإيمان والحكمة بعيدا عن نسيان نفسك أمام الوسيلة الخبيثة الباطلة، و حتى تعلم أن ما تريده هو ما يريده الله ولن يحدث ذلك فعليا إلا بشئ واحد فقط!
فى إستفهام أريد أن أعرف!
-ما هذا الشئ؟!
و فى منتهى الحكمة يقول
-أن تتحرر من كل ما يجذبك إليها، و لن يتم ذلك إلا بعلو الغاية عندك التى تجعلك دائما فى صعود تخشى الإنجذاب إلى الأسفل، الهدف الذى يستحق منك أن تنكر وتكفر بكل مدد إلا منه، إن كان الهدف ذاتك، عزيمتك تكون على قدرها ومنك المدد! وإن كانت غايتك ذات أجل وأعلى تكون عزيمتك وقدرتك ممدودة منها !
أنا فى تعجب
-من أنت ؟!
-أنظر إلى خاتمك !
نظرت إلى الخاتم ثم إليه مرة أخرى وجدته أختفى، لا أرى أى أثر له! أختفى دون أن أعرف أسمه!ثم نظرت إلى الخاتم وقد تيقنت بلعنته، و برغم من أن الضيف أختفى إلا أن صوته مازال فى أذنى يقول لى
صوت -أرمي به !
أنا نظرت إلى الخاتم أحدق فيه نفسى تجاهد الخاتم المتشبث بأصبعى، كأنة

obeikan.com

حبل ملتف حول رقبتى ليس حول أصبعى، ثم سمعت الصوت مرة أخرى
صوت -أخلعه بقوة ويقين وأرمى به !
ثم خلعته بقوة ويقين ورميت به، حينما رميت به علمت أننى أتحرر من شرورى وليس من مجرد خاتم، ثم قال لى الصوت مرة أخرى
صوت -أنظر أمامك تجاه السماء ثم أغمض عيناك!
ثم نظرت إتجاه السماء وشعرت برياح جميلة عطرة تبرد وجهى، ثم أغمضت عيناى، فسمعت صوت الضيف يقول لى
صوت -أنا «شارد»..أسمى «شارد»!
هذا الضيف هو نفسه ذاتى، يقول لى «شارد»
-أين أنت الأن؟؟...و متى ؟؟...و ماذا تفعل؟؟
وجدت نفسى أطير إلى الأمام بقوة وخفة وتحكم فى نفسى لم أراه من قبل، فوق مكان لم أراه من قبل، تتقابل فيه أطراف أصابع قدمى مع نهاية أطراف حشائش طويلة خضراء لأنظر إلى أخر ذلك المد الأخضر لا أرى له نهاية!لا أشعر إلا بتلك الرياح التى تتخللنى أنا والحشائش، ثم ينتهى ذلك المد الأخضر بمد أخر من الماء لا أرى أخره، تلمس أصابع أقدامى ذلك الماء تارة ثم ترتفع عنه مرة أخرى حتى صعدت إلى مكان إلى أعلى نحو السماء، ، يا الله، إنه شعور لا يوصف متعة لما أراها ولم أشعر بها من قبل، فأنا أشعر حتى بحواس خارج حواسى المألوفة، أى حاسه تلك التى تجعلنى أشعر بتلك السعادة المتناهية؟ ! ما هذه الحرية؟! لأهبط مره أخرى على الارض بخفة وبسلام أجد نفسى فى لباس أبيض أشبه بلباس محاربين الأساطير أو الملوك، هبطت على أرض ليس لها أى معالم لا أرى نهايتها ولكنى بدى فى نفسى أنها أرض كروية معهودة لا أرى فيها أى شئ سوى غمام من على بعد وعدد متفرق من الجبال جامدة! تحت سماء زرقاء!، ثم سمعت صوت «شارد» مرة أخرى يقول لى
-أنظر أمامك!

obeikan.com

انا لم أجد شئ

-إلى أى شئ ؟!...لا يوجد أى شئ هنا!

ثم قال مرة أخرى !

-أنظر جيدا !

ورد فى نفسى حينها أننى إذا نظرت سوف أجد مجموعة من كتب وصحف لأساطير عتيقة، ثم نظرت أمامى لأجد حقا أنها مجموعة من الأساطير العتيقة مجلدة بجلد أشبه بجلد الماعز ولكن معنونة كل أسطورة عنونها يشير إلى محتواها، أساطير مكومة على بعضها كالتلال، قال لى «شارد»

-التقط واحدة!

ثم التقط واحدة!فسألنى «شارد» قائلا!

-ماعنوان الأسطورة؟!

أنا بدهشة من أسم الأسطورة

-»ناطحات السحاب»

سألنى شارد مرة أخرى قائلا!

-ما هى ناطحات السحاب؟!

ثم قمت بفتح الأسطورة لأقرأ له شئ عن «ناطحات السحاب»قائلا

-تقول الأسطورة أنه يحكى أن كان هناك بشر صنعوا طوابق فى السماء كالجبال بل أعلى تتوسط السحب من حولها، حتى ظنوا أؤلائك البشر بأنهم سكنوا الجنة!

ثم ضحكت!قائلا

-ما هذا الهراء أنها أساطير الاولين!

ثم قال لى «شارد»

-أنظر بجانبك!

فورد فى نفسى أن إن نظرت بجانبى سأجد «نار زرقاء باردة»!ثم قمت برمى الأسطورة فيها، فقال «شارد» لى

obeikan.com

-لماذا رميتها؟!قبل أن اقل لك أرميها!
فقلت له
-ورد فى نفسى أن عليا أن أرميها فى النار!
فقال «شارد» لى
-خير ما فعلت، وما الأسطورة الثانية؟!
أمسكت بيدى أسطورة ثانية، من تل الأساطير!
-»مصفحات حديدية فى السماء وفى الارض»، ذلك أسم الاسطورة الثانية!
«شارد» مقاطعا
-عنوان غريب، ما المحتوى
ثم فتحت مقدمة الأسطورة
-تقول الأسطورة تلك، أن البشر صنعوا أشياء تدعى سيارات ودبابات تسير بالسموم!و أخرى بدون سموم، وتمشى على الأرض، من الصفيح، و أخرى تطير فى السماء تشبه الطيور فى فكرتها أيضا من الصفيح، و شئ غريب أخر يشبه القلم أسمه»صاروخ»، و أشياء أخرى تمشى على الأرض وتطير وتعرج فى السماء من صفيح!...البشر خيالهم متسع!و تلك الأسطورة الأخرى فى النار!
ثم رميت الأسطورة الثانية فى النار، ثم أخذت أسطورة أخرى، فقال «شارد» لى
-ما عنوانها وما مضمونها؟!
-عنوانها»مفهوم الإختراع وشرحه؟!»
-إختراع! ومضمونها
ثم إبتسمت بسخرية، و فتحت الأسطورة
-تقول الأسطورة أن البشر أتوا بأشياء من العدم وتلك العملية فى حد ذاتها أسمها»إختراع»، تتكلم عن أشياء تحت بند الإختراعات كالبلورة السحرية تدعى «تلفاز»، مبردات للهواء...الخ، مبيدات حشرية لأبادت الحشرات ومبيدات بشرية لأبادت البشر بعضهم لبعض تدعى «قنابل»، سبحان الله،

خيال البشر لا يخلو من الشر.
ثم رميتها فى النار، فسمعت «شارد» يقول لى
-خير ما فعلت!
ثم لفت نظرى عنوان أسطورة وسرحت فيه، فسمعت «شارد» يقول لى
-فيما سرحت؟!
-فى أسم الأسطورة!أسمها موجع!
قال شارد
-»العقاب الروحى»!
ردت فى حيرة!
-نعم
ثم فتحت لأقرأ مقدمة الأسطورة، و كانت روحى تتألم حين أقراها، ولا أعرف السبب
-تقول تلك الأسطورة أنه كان يوجد شر إخترعه الإنسان مهما ورد فى العقل ان هناك أبشع منه، فهذا هو الأبشع، أسمه «العقاب الروحى» و يقال أنه أبشع كارثة فعلها البشر للبشرعبارة عن» بشر أو أنظمة أو كاينات بشرية تدفن العقول فى صناديق سوداء فى ظلمات أرضية بعيدا عن كل ما هو»غير ارضى»، بعيدا عن النور، توهم البشر أن الحقيقة وهم، و أن الوهم حقيقة، تفرض خيارتها وتسطو على العقول وتكبل الإرادة، تؤمن بأسبابها وتكفر بمعطل الأسباب، توهم البشر بأن الحرية هى العبودية والعبودية هى الحرية وتقلب كل أمر!».
ثم سمعت «شارد» يقول
-هل تلك أخر أسطورة؟!
أنا بإبتسامة بها سخرية
-نعم
«شارد» مرة أخرى يقول

obeikan.com

-اذا ارمها و» لتحرق اخر اسطورة» !
ثم رميتها بين النيران وحينما رميتها، إبتلعتها النيران ثم انطفئت النيران وحدها.ثم سمعت «شارد « يقول جملة عجيبة لى
-عقلك ملاحم!
و بعد أن قال تلك الجملة سمعت أصوات أقدام رهيبة من جيوش بشرية غفيرة تدب الرعب فى القلوب تستفز الأرض من قوتها تأتى مسرعة من بين الغمام، جيوش بشرية بأسلحة من بداية التاريخ حتى نهايته ، و أنا أقف وحيدا بلا سلاح ثم أسمع «شارد» يقول.
-هل تنتظر أن تعطى سبب تمسكه فى يدك لتحاربهم به؟ !هل تظن أنك بداخل» منطقة الأسباب»، داخل المعهود من الفطرة التى فطرك البشر عليها، إذا لماذا لم تخف تلك مرة من تلك الأعداد المهولة!ولكن أنظر إلى ما تملكه بيدك!
ثم نظرت إلى يدى لأجد «الفانتاريم» ولكن ليست كالتى رأيتها أول مرة، فهى أكثر نضج وأكبر حجما ولونها الفيروزى أسطع من ذى قبل، بل يخرج منها فروع بها أوراق نباتات خضراء طويلة جدا وناعمة، لأقول فى عجبة!
-»الفانتاريم»!
حقا تلك المرة أشعر بأن سبب الخوف تعطل، وما يبدو إنه ليس فقط الذى تعطل هو الخوف، فتذبذب منظر الجيوش وهم قادمون نحوى حتى اختفوا وأنا فى تعجب، و عطل صوت «شارد»، و لكن كان هناك صوت كالبوق، بنفخة من الصور إنتهت السماء الزرقاء، وإنتهت الجبال الجامدة، و إنتهت الأرض الكروية، تعجبت فى نفسى كيف لى أن أوجد بين ذلك المنظر بعد هلاك المعهود، وقدوم عهد أخر بعد النفخة الثانية من الصور، السماء الزرقاء تبدلت بدهان الورد، الجبال الجامدة تبدلت بالعهن المنفوش والأرض الذى ورد فى نفسى أنها كروية بدلت بالممدودة، .
ثم عادت الجيوش مرة أخرى ولكن كالنبات من البداية كأن المنظر يعاد

للمرة الثانية ولكن فى بعد أخر وفى زمن أخر، ولكنهم تلك المرة ومن بين الغمام يظهروا كأشياء من بعيد لم أرى مثلها من قبل أشبه بالسراب حينما يتحول إلى حقيقة، أشباه بشر لكنهم وحوش ومسوخ او شياطين، أجسامهم متفاوتة الأحجام، يأتون من كل حد وصوب على أرجلهم وركبانا على مسوخ هائلة الحجم، و يصرخون بأصوات عالية مخيفة معذبة حينما تقع على الأذان وأنا أتوسط الأرض التى يأتى فيها من كل حد وصوب تلك الأعداد الغفيرة يحملون أسلحة، السلاح الواحد كفيل بأن يطيح بغابة من الأشجار بضربة واحدة منه، و لكن لم أكن خائفا قدر التعجب فى نفسى من هول ما حولى ، من تبديل لكل المفاهيم فى لحظة، ثم عاد صوت» شارد» ليقول لى اخر جملة سمعتها منه ولكن بشكل أخر قائلا.

-إقفز إلى أعلى بقوة لن يستطيع أحد منهم ان يجذبك إليه!

قفزت بقوة إلى أعلى، قفزة لا متناهية، ومعى «الفانتاريم»! قفزوا بعدى بقوة، لكن لم يستطع أحد من المسوخ أن يلحق بى، ولكن ظلوا تحت السراب والغمام!

قد تكون تلك الأحلام، إجابة مرسلة على سؤال، هل هناك أكثر من «أمر واقع»؟!بعيدا عن أى تفسير بأيدينا، كيف لى أن لا أشعر بأن هناك فى لحظة»أمر واقع سقط بواقع أخر»؟!و أنا فى صمت وسكر، لم يرد فى نفسى حتى التكذيب بل فقط الإيمان!، لأفتح عينى تحت الماء أمام نافذة الحمام على صوت «الدكتور سليمان حكيم» فى التلفاز من بعيد وهو يقول

-أكثر من زمان بداخل الزمان وأكثر من مكان داخل المكان وأكثر من أمر واقع فقط فى دقيقتان فى «غير أرضى» !

ذهبت بقرب التلفاز بعد أن رأيت بجانبه فى جريدة صورة ل»حواء»، فى إعلان ستلقى فيه شعر فى ندوة شعرية، فتفاجئت بها!ثم أبتسمت!فقررت الذهاب لها وأتمام الأمر!.

obeikan.com

الخاتمة لمن أراد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد هناك أشياء فى هذا الكون غريبة يصعب على الأنسان إستيعابها فى ظل طغيان وسطوع عالم الماديات، تلك الأشياء تعتبر بمثابة الغاز محيرة لكل واحد منا، كما أن أيضا تلك الالغاز تحاكى كل واحد بمفرده على حده وعلى قدر إدراكه، ونحن إلى الأن لا نستطيع تفسيرمثل تلك الأشياء ويختلف كل واحد منا فى تفسير تلك الظواهر أو الألغاز أو الرموز لا تهم المسميات المهم المغزى، حتى إذا سمعنا عن تلك الأشياء فى أى مكان ما أو أطلعنا عليها فى كتاب وقد حدثت فى الأزمان الماضية مثلا، سمعنا لها ولكن فى قرارة أنفسنا نتعامل معها على إنها خرافة أو أسطورة من أساطير الأولين برغم أننا نرى مثلها فى الحلم على سبيل المثال، حتى لو كانت تلك الأشياء جزء لا يتجزأ من صلب عقيدة ما أو من أى مسلمات أو أحيانا يسمونها البعض بالميتافيزيقيا «ما وراء الطبيعة»، وهناك من يخضع تلك الأشياء إلى العقل الباطن أو اللا وعى الذى يجعل تلك الأشياء كامنة فى العقل وحده وهو المسيطر والمهيمن عليها، ولكن أيضا العقل الباطن وقوانينه الحاكمة لا تتجاوز حدود العقل البشرى لأنها تخضع كل شئ للعقل فبالتالى هى كافرة بفكرة ما وراء الطبيعة أى هنا بما وراء العقل، حتى وأن كان مثلا يتم الإسقاط بالخوف من الموت فى الحلم على هيئة رجل أو مسخ لا تستطيع الفرار منه وهذا كمثال من أمثلة عديدة، أنذاك إذا رويت ذلك الحلم لأحد من الناس على علم يقول لك أن هذا عقلك الباطن ولكن أيضا لا أريد

التعمق فى مفهوم العقل الباطن لأن المفهوم نفسه ليس بقطعى وله خبراء فيه وأهل ذكر إنما من أسمه «العقل الباطن» فهو شئ لايتجاوز الإدراك العقلى، تلك الأشياء نسميها نحن الغاز لكن هل هى حقا الغاز؟!.. أم هى إشارات ورموز يصعب على الانسان تخيلها بعقله فى ظل هيمنة المادة؟!أم هى أجوبة حقيقية لا مادية على أسئلة محيرة فى عالمنا المادى؟!...أم هى إجابات من الحاضر أو من الأمر الواقع تحكى عن كيفية حدوث شئ ما فى المستقبل أو بعد نهاية التاريخ!.

ولذلك سأجمع ما بين تلك الخاتمة وموضوع سبق للعبدلله وأن تكلم فيه وكتب عنه الا وهو الأشياء «ظاهرها وباطنها»، وسأقتبس من ذلك الموضوع فكرته الأساسية الا وهى»أن الرابط ما بين العلم والغيب أو الظاهر والباطن أوالعالم المادى والعالم الأخر هو ثبوت المفاهيم والمعانى مع اختلاف أبعادها ومقاديرها وحالها»، تلك هى كانت فكرة الموضوع المحورية الذى كتبت فيه، وسوف استعير أيضا بجملة من نفس الموضوع هذا للعبد لله الفقير، الا وهى « وحتما لا يسمى الغيب غيبا إلا وإذا ظهر على ماهو ظاهر إلينا من علم فأسقطه»، قد يستغرب البعض عن وجود علاقة ما بين تلك الخاتمة وذلك الموضوع «الأشياء ظاهرها وباطنها»، لكن فى حقيقة الأمر الهدف واحد الا وهو محاولة إخراج العقل قليلا من ذلك الواقع المادى وإهلاكه وإعماله قليلا خارجه إلى أفاق أوسع وأكبر، بعيدا عن التعامل مع العقل الإنسانى أو الإنسان فى العموم على إنه إنسان ألى مبرمج على تأدية وظائف معينة، وإذا حاول أن يتعدى تلك الوظائف أصاب بفيروس دمره تماما وتملكه وقضى عليه.

ولذلك فكرت كثيرا عن كيفية عرض تلك الرؤية، وكيف أجعلها تصل إلى القراء بسهولة ويسر، وفى ايطار شيق وأرجو أن يكون كذلك، وجدت أن أنسب طريقة للتوصيل هى أن توضع فى شكل روائى، مع مرعاة والأحتفاظ بعناصر الرواية، و الموازنة مابين روح الرواية ووجودية الأفكار، مع العلم

أنه ستكون أحداث تلك الرواية خيالية إلى حد كبير! بمعنى أن هناك أحداث غريبة وقعت بالفعل وهناك أحداث لم تقع فى ما نظن أنه أمر واقع»الحياة المادية»

فهل يوجد أكثر من «أمر واقع؟!»

و الله أعلى وأعلم.

obeikan.com